د. عبد الفتاح أبو سنة

علوم القرآن

دار الشروق




علوم القرآن

الطبعـة الأولى
١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م



© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

د. عبد الفتاح أبو سنة



دار الشروق

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا قيمًا لينذر بأسا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا .

أحمده على قديم إحسانه ، وتواتر نعمه ؛ حمد من يعلم أن مولاه الكريم علمه ما لم يكن يعلم وكان فضله عليه عظيما .

وأسأله المزيد من فضله ، والشكر على ما تفضل به من نعمه ؛ إنه ذو فضل عظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله ونبيه وأمينه على وحيه وعباده صلاة تكون له رضا ولنا بها مغفرة وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد ؛ فإن الله عز وجل أنزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم وأعلمه فضل ما أنزله عليه ، وأعلم خلقه فى كتابه وعلى لسان رسوله أن القرآن عصمة لمن اعتصم به وهدى لمن اهتدى بهديه ، وغنى لمن استغنى به ، وحرز من النار لمن اتبعه ، ونور لمن استنار به ، وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، ثم أمر الله خلقه أن يؤمنوا به ويعملوا بمحكمه فيحلوا حلاله ويحرموا حرامه ، ويؤمنوا بمتشابهه ويعتبروا بأمثاله ويقولوا (آمنا به كل من عند ربنا) وهو

﴿ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ جمع فأوعى ، وأكمل فاكتمل ودلل فأعجز ، وبشر فألزم ؛ فهو كتاب عقل ومنطق ، ودستور كامل يربط بين الخالق والمخلوق بأدعم رباط ، ويصل بين الدنيا والآخرة بأكمل صلة .

وفى القرآن عموميات وخصوصيات - فعمومياته سائر الآيات وخصوصياته حروف ؛ إما مفردة ، وإما مركبة على سبيل الإعجاز وهو نسق عجيب فريد حيث راعى فى نظمه الطريقة النفسية والطريقة اللسانية ، وكلما ازداد الفكر البشرى تقدمًا ونضجا وبصيرة ، وسجلت له أحداث الكون وتجاربه نقاطا جديدة فى الخط البيانى للعقل الإنسانى أدرك من حقائق القرآن ما لم يدرك من قبل ، ولهذا كان القرآن سجلاً لجميع ما تتوقف عليه الهداية من المعارف وحقائق الكون .

ومن أسرار إعجاز هذا القرآن أن معارفه لا تنفد ولا تنتهى فهو مبعث كل بحث أو كشف ؛ لأنه يصدر عن معرفة الخالق العليم القادر ، وهو الكتاب الخاتم والرسالة الخالدة التى اندرجت فيها سائر الرسالات ، ولا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ولا سبيل إلى السعادة فى الحياتين إلا باتباع هديه، نزل بحرف قريش الذى استقطب لهجات العرب ، واستوعب لغات العجم فما استساغته قريش من الألفاظ ذاع وشاع وما استهجنته اندثر وضاع؛ فهى دائرة متسعة ، وحلقة متصلة لا يدرى أين طرفاها ؛ لأنهم جاوروا البيت الحرام فكانت تفزع إليهم القبائل على تنوعها ، ويخاطبون فيختارون من كل لغة فصحاها ، ومن كل وجه أحسنه فجاءوا فصاحا صباحًا، ولو أنك تتبعت تاريخ المعلقات التى كانت تعلق فى الكعبة بأمر قريش لعلمت أنها مكتوبة بحرفها الذى شمل معظم الأحرف إن لم يكن كلها، فاستحقت بجدارة أن ينزل القرآن بحرفها .

ونزل القرآن الكريم بمكة والمدينة فى حوالى ثلاث وعشرين سنة منجما وفقا

للظروف، وما تتطلبه الأحكام ويحتاجه الأنام لبناء الدولة الحديثة التى قوامها الكتاب والسنة فى جو بلاغى عظيم تسارع إليه أيدى كتاب الوحى مسجلة ما ينزل من السماء على قلب الأمين بلسان جبريل ، ثم يلقيه النبى صلى الله عليه وسلم بين الآذان الصاغية والقلوب الواعية ، فتنشرح صدورهم وتنفسح أفئدتهم ويدخلون فى دين الله أفواجا ، ثم يتهيئون للعمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه ، والاعتبار بأمثاله قائلين : (آمنا به كل من عند ربنا) فذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة . فلله مزيد الحمد أولا وآخرا .

المـؤلـف

مِنْ فضَائِلِ القرْآن

قال الله عز وجل : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ [1] وحبل الله هو القرآن الكريم .

وفى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم : « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ـ وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾ [2] من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » [3].

وقال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [4] قال محمد

---

(١) آية ١٠٣ من سورة آل عمران .

(٢) الجن : ١ ، ٢ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فى فضل القرآن ٢/ ٢٤٥ .

(٤) آية ٢٤ من سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ابن الحسين [1] : « ألا ترون ـ رحمكم الله ـ إلى مولاكم الكريم كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه ، ومن تدبر كلامه عرف ربه عز وجل ، وعرف عظيم سلطانه وقدرته ، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين ، وعرف ما عليه من فرض عبادته فألزم نفسه الواجب فحذر مما حذره مولاه الكريم ورغب فيما رغبه فيه ، ومن كانت هذه صفته عند تلاوة القرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاء فاستغنى بلا مال ، وعَزّ بلا عشيرة وأنس بما يستوحش منه غيره ، وكان همه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها ؛ متى أتعظ بما أتلوا ؟ ولم يكن مراده متى أختم السورة ؟ وإنما مراده متى أعقل عن الله الخطاب ؟ متى أزدجر ؟ متى أعتبر ؟ ؛ لأن تلاوته للقرآن عبادة والعبادة لا تكون بغفلة والله الموفق » .

وفى قوله تعالى : ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ قال مجاهد : يعملون به حق عمله .

فضل حملة القرآن

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله أهلين قيل من هم يارسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » [2].

وحملة القرآن أشرف هذه الأمة ، وقراء القرآن ومقرئوه أفضل أهل هذه الملة ، والدليل على هذا ما أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث الجرجانى

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجرى .
والآجرى [بفتح الألف وضم الجيم وتشديد الراء المهملة] نسبة إلى آجر وهى محلة غرب بغداد ، انظر الأعلام للزركلى ٦ / ٣٢٨ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه ، المقدمة باب فضل من تعلم القرآن وعلمه ٣ / ٢٤٢ .

عن كامل أبى عبد الله الراسبى عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشراف أمتى حملة القرآن »[1].

وروى البيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاثة لا يكترثون للحساب ولا تفزعهم الصيحة ولا يحزنهم الفزع الأكبر : حامل القرآن يؤديه إلى الله تعالى يقدم على ربه سيدًا شريفًا حتى يرافق المرسلين، ومن أذن سبع سنين لا يأخذ على أذانه طمعا ، وعبد مملوك أدى حق الله من نفسه وحق مواليه »[2].

وروى الطبرانى بإسناد جيد من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من قرأ القرآن وأقرأه »[3] وروى البخارى والترمذى وأبو داود عن عثمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[4].

وفى جامع الترمذى من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : ﴿ من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ﴾[5] .

وخرج البيهقى : « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن »[6]وقال ابن عباس : «من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا » وعن

---

(١) مجمع الزوائد جـ ٧ كتاب التفسير باب منه فى فضل القرآن ومن قرأه ص ١٦١ وقال الحافظ الهيثمى : رواه الطبرانى وفيه سعد بن سعيد الجرجانى وهو ضعيف أ هـ .

(٢) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ١ / ١٢٠ .

(٣) جمع الجوامع للسيوطى ٢ من السنن القولية العدد ١٥ ص ٨٥٨ ط مجمع البحوث بالأزهر .

(٤) صحيح البخارى ٦ / ك التفسير ـ خيركم من تعلم القرآن وعلمه ص ٢٣٦ .

(٥) صحيح الترمذى جـ ١١ أبواب ثواب القرآن ص ٤٦ عن أبى سعيد الخدرى .

(٦) الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ١ / ٢١٢١ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرأ القرآن ورأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله » [1] وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من جمع القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه إلا أنه لا يوحى إليه » [2] والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة والمراد الاختصار والإيجاز .

وفى ختام هذا المبحث أقول لمحبى قراءة القرآن قد ذكر الله تعالى أوصافا كثيرة للقرآن تتعلق بحامليه من الخير والثواب ، وما أعد لهم فى العقبى والمآب. ولو لم ينزل فى القرآن فى حقهم إلا قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ [3] الآية لكان فى ذلك كفاية لهم .

---

(١) مجمع الزوائد ٧ ك التفسير ب فضل القرآن ص ١٥٩ عن عبد الله بن عمر مرفوعًا وقال الحافظ الهيثمى : رواه الطبرانى وفيه إسماعيل بن رافع وهو متروك .

(٢) المرجع السابق .

(٣) آية ٣٢ من سورة فاطر .

القرآن الكريم

القرآن ما نقل بين دفتى المصحف نقلا متواترا وعرفه بعضهم قائلاً :

الكتاب هو القرآن المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المكتوب فى دفات المصحف المنقول إلينا على الأحرف السبعة نقلا متواترا .

وزاد بعضهم : المنقول إلينا نقلا متواترا (بلا شبهة) فأخرج بالمتواتر القراءات التى تثبت بالآحاد ؛ لأن ما دون المتواتر لا يبلغ مرتبة العيان ، ولا يوجب الإيقان ، وكلام الله تعالى ما أوجب علم اليقين ؛ لأنه أصل الدين ، وبه ثبتت الرسالة ، وقامت الحجة على الضلالة (وبلا شبهة) خرج المشهور، وهو ما كان آحاد الأصل متواتر الفرع ، كحديث : « إنما الأعمال بالنيات » الذى رواه أمير المؤمنين عمر وحده ثم تواتر جماعة عن جماعة .

وقالت جماعة : القرآن هو الكلام المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه . فخرج الكلام الذى لم ينزل ، والذى نزل لا للإعجاز كسائر الكتب السماوية . قال الجعبرى المقرى : كلام الله تعالى قديم متلو محفوظ مكتوب .

ولعل التعريف الجامع المانع هو قول القائل :

« القرآن كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بوساطة جبريل عليه السلام ، المكتوب فى المصاحف ، المنقول إلينا بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ، المبدوء بسورة الفاتحة المختتم بسورة الناس » .

فصل
(في تاريخ المصحف)

روى البخارى فى صحيحه عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت قال : أرسل إلى أبو بكر رضى الله عنه مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وأنا أخشى أن استحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك . ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن واجمعه . فوالله لو كلفنى بنقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن قلت : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فتتبعت القرآن أجمعه من العسب [١] واللخاف [٢] وصدور

---

(١) العسب جريد النخل المستقيم الرقيق يكشط خوصه .

(٢) اللخاف : حجارة عريضة رقيقة بيضاء .

الرجال حتى وجدت آخر سورة براءة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . . الآيتان) [١]. حتى خاتمة براءة وكانت الصحف عند أبى بكر إلى أن توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر .

وروى البخارى أيضًا فى صحيحه عن ابن شهاب أن أنس بن مالك رضى الله عنه حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق وأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة [٢] فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك . وأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان المصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

قال ابن شهاب : وأخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت قال : فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف . قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت

---

(١) آخر التوبة : الآيتان ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) كان الاختلاف فى القراءة فيما نسخ قبل العرضة الأخيرة وفى مثل مصحف ابن مسعود وابن أبى لا فى القراءات القرآنية .

الأنصارى[1] (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) [2] فألحقناها فى سورتها فى المصحف [3].

قال العلامة الجعبرى عند قول الشاطبى فى عقيلة أتراب القصائد حين تعرض لكمية المصاحف التى نسخت عند قوله :

وسار فى نسخ منها مع المدنى   كوف وشام وبصر تملأ البصرا
وقيل مكة والبحرين مع يمن   ضاعت بها نسخ فى نشرها قطرا

تنويهات : بين فيها عدد المصاحف التى استنسخها عثمان رضى الله عنه ومقارها ونسبتها باعتبار ما آلت إليه ، وسير المدنى من موضع نسخه إلى مقره ومجموعها ثمانية : خمسة متفق عليها وثلاثة مختلف فيها .

قال أبو على الأهوازى : أمر عثمان رضى الله عنه زيد بن ثابت أن يقرئ بالمصحف المدنى وبعث عبد الله بن السائب مع المكى والمغيرة بن شهاب مع الشامى وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى ، وعامر بن عبد قيس مع البصرى وبعث مصحفا إلى اليمن وآخر إلى البحرين ولم نسمع لهما خبرا ، ولا علمنا من

---

(١) لا يظن القارئ الكريم أن هذا من خبر الواحد ، فإن هذه الآية من سورة الأحزاب والآيتين من سورة براءة كانت مكتوبة فى مصحف أُبَىّ . وهذا هو الشاهد الثانى بعد خزيمة ثم إن هذا الصحابى الجليل قد منحه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شهادته تعدل شهادة رجلين وذلك بمحضر من الصحابة على إثر حادثة شهد فيها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم حجته ضد خصمه وقال يارسول الله إنا نصدقك فى خبر السماء أفلا نصدقك فى أمر من أمور الدنيا ؟ فأقر النبى شهادته بعد أن نبهه أن لا يشهد إلا عن رؤية عينية وأشار صلى الله عليه وسلم إلى الشمس وقال له : « وعلى مثلها فاشهد » ولذلك أخذ زيدٌ بشهادة الرجل فى الآيات التى لم يجدها عند سائر القراء .

(٢) الأحزاب : ٢٣ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٦٢٧ ط الريان .

نفذ معها ، ولهذا انحصر الأئمة السبعة فى الأمصار الخمسة . وإنما كتب عثمان هذه المصاحف لإنفاذ ما وقع عليه إجماع الصحابة إلى أقطار بلاد المسلمين . كما كتب هذه المصاحف مشتملة على الأحرف السبعة) وعلى لغات قريش على اختلاف الآراء فى الأحرف السبعة [١] قلت : وقد توصل الثقات من العلماء إلى أن خوف عمر رضى الله عنه لم يكن من سوى ذهاب كثير من أحرف القرآن السبعة المحفوظة فى الصدور إذا مات حملة القرآن أو يذهب كثير من صحائف القرآن المكتوبة بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم أو ضياع الرسم القرآنى بضياع كتبته [٢].

يقول العلامة ابن تيمية فى فتاويه :

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن لا يشك أحد أصحابه فى كلمة منه أو حرف من حروفه ؛ بل سارت الركبان به وشاع فى أنحاء الجزيرة العربية وتدارسه أهلها ؛ كلهم يتلقى ما يقرؤه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أحد من أصحابه وفى ذلك يقول صاحب تنزيه القرآن : « إن سبعين رجلا أو سبعين ألفا لو ذهبوا من حفظته فى ذلك الوقت لم يكن شيئًا مذكورًا [٣].

أما جمع القرآن الثانى فقد كان المقصد منه جمع الأمة على وجوه القراءات الثابتة المتواترة الصحيحة ، وإلغاء ما ليس كذلك بتحريق أو تغريق فى محضر من أجلاء الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

يقول مصعب بن سعد : أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك وقال : لم ينكر ذلك منهم أحد [٤].

---

(١) شرح العقيلة فى لوحة رقم ٥٣ ، ٥٤ مكتبة الأزهر ـ قراءات .

(٢) انظر جمع القرآن للشيخ العبادى ـ رسالة دكتوراه ص ٣٦ ـ ٥٧ .

(٣) تنزيل القرآن ص ٤١ .

(٤) المصاحف للسجستانى ص ١٢ .

الشكل والإعجام [1]

١ ـ الشكل بطريق النقط :

لم يكن الخط الذى وصل إلى العرب مضبوطا بالحركات والسكنات ، بل كان خاليا من التشكيل ، وكان الناس مع ذلك يقرأون الكتابة قراءة صحيحة معتمدين على سياق الكلام وما يقتضيه المقام ودلالة السوابق واللواحق .

وانتشر الإسلام واختلط العرب بالعجم ، فكان الأعاجم الذين لا يحسنون استعمال العربية ، وكان النشء الذى جاء نتيجة لمصاهرة العرب للعجم على شاكلة أمهاتهم الأعجميات فظهر اللحن فى القول ، وخيف على القرآن الكريم أن يتطرق إليه اللحن ، وعملوا على صيانة القرآن الكريم ولغته فطلب زيادُ بن أبيه (ابن سمية) ـ وكان واليا على البصرة ـ فى نهاية القرن الأول من أبى الأسود الدؤلى أن يضع طريقة لإصلاح الألسنة وقال له : « إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسنة العرب ، فلو وضعت شيئًا يصلح به الناس كلامهم ، ويعربون به كتاب الله ، وبعد تردد رضى أبو الأسود ،

---

(١) هذا الفصل من محاضرات ألقاها الدكتور عبد العزيز الدالى على بعض علماء الأزهر لإنشاء إدارة إحياء التراث الإسلامى بالأزهر تحت إشراف المؤلف .

وطلب من زياد كاتبًا اختاره أبو الأسود من عبد القيس ، وقال له أبو الأسود : خذ المصحف ، وصبغا يخالف لون المداد فإذا رأيتنى فتحت شفتّى بالحرف فانقط فوقه نقطة ، وإذا كسرتها فانقط واحدة أسفله ، وإذا ضممتها فاجعل النقطة بين يدى الحرف ؛ فإن تبعتْ شيئًا من هذه الحركات غُنّةٌ فانقط نقطتين، وأخذ يقرأ القرآن بالتأنى والكاتب يضع النقط ،وكلما أتم الكاتب صحيفة أعاد أبو الأسود نظره عليها ، ثم استمر على ذلك حتى أعرب المصحف كله فأخذ الناس هذه الطريقة عنه وشكلوا بها الحروف ، فكانوا يضعون نقطة فوق الحرف للدلالة على فتحته ، ونقطة تحت الحرف للدلالة على كسرته ، ونقطة عن شماله للدلالة على ضمته ، ولا يضعون شيئًا على الحرف الساكن ، وإذا كان الحرف منونا يضعون نقطتين فوقه أو تحته أو عن شماله .

وكانوا يسمون هذه النقط شكلا ؛ لأنها تدل على شكل الحرف وصورته ، ولم تشتهر طريقة أبى الأسود إلا فى المصاحف حرصا على إعراب القرآن الكريم، أما الكتب العادية فكان شكلها نادرًا ؛ لأن المكتوب إليهم كانوا يعدون ذلك تجهيلاً لهم . قال بعضهم : « شكل الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه » ومن الناس من كان ينفر من الشكل بهذه الطريقة لقبح منظره ، وقد عرض مرة على عبد الله بن طاهر كتاب مشكول ، وكان خطه جميلاً فقال : «ما أحسن هذا الخط لولا كثرة شونيزه ، والشونيزة الحبة السوداء » يقصد القائل بهذا كثرة النقط التى تحير القارئ المبتدئ .

٢ ـ الإعجـــام :

المراد بالإعجام تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع العجمة أو اللبس ، وقد خلت النقوش التى عثر عليها جميعا من النقط تماما ، وكذلك كانت الكتابة النبطية التى انتهى الرأى ـ حتى الآن ـ إلى أن الكتابة العربية مشتقة منها

أو هـى أقرب حلقة فى سلسـلة تاريخ الكتـابة العربية ، وربما كان من المحتمل أن يقال إن الكتابة ظلت خالية من النقط حتى زمن عبد الملك ابن مروان ؛ إذ المشهور أن اختراع الإعجام كان فى زمنه ؛ ولكن أقوالا لبعض العلماء والمؤرخين الإسلاميين الأول أكدت أن النقط كان معروفا قبل كتابة المصحـف الإمام (مصحف عثمـان) ثم عدل عنه قصدا ، وجرد القرآن الكريم منه .

وتذهب بعض الآراء إلى أن اختراع الإعجام كان قبل الإسلام ؛ فقد كتبت حروف على صورة واحدة كالباء والتاء والثاء والياء ، وكذلك الجيم والحاء والخاء ولكنها تختلف فى النطق أول أمرها على هذا اللبس فضلاً عن أنه عثر على كتابات قديمة محررة قبل خلافة عبد الملك ، فيها إعجام بعض الحروف ، ومنها البردية المؤرخة سنة ٢٢ هـ وبعض حروف كلماتها منقوطة ، ومن ثم فقد عرف النقط قبل زمن عبد الملك ، وربما تساهل الكتاب فى إثباته اعتمادًا على سليقة العربى وطبعه فى استعمال لغته العربية عن فطرة . أما القرآن الكريم فقد جردت كتابة المصحف الإمام قصد التجريد ، حتى إذا اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا وكثر الأعاجم الذين أسلموا أو فتح العرب بلادهم ، فاضطروا إلى أن يعرفوا العربية قراءة وكتابة ؛ لأنها لغة الدين الجديد ولغة الحاكم الوافد . وقد ظل المسلمون يقرأون فى مصحف عثمان نيفا وأربعين سنة ثم كثر التصحيف [1] فى العراق ففزع الحجاج [ابن يوسف الثقفى] عامل عبد الملك بن مروان على العراق ؛ إلى كُتّابه ، وطلب منهم أن يضعوا علامات لتمييز الحروف المتشابهة ، ودعا نصر ابن عاصم الليثى ويحيى بن يعمر العدوانى (تلميذى أبى الأسود الدؤلى) لهذا الأمر وكانت عامة المسلمين تكره أن يزيد أحد شيئًا على ما فى مصحف

---

(١) التصحيف : هو تغيير نقط الحروف المتماثلة فى الشكل كالباء والتاء والثاء والنون والياء .

عثمان ، وبعد البحث والتروى قرر نصر ويحيى إدخال الإصلاح الثانى ، وهو أن توضع النقط أفرادًا وأزواجًا لتمييز الحروف المتشابهة فتمييز الدال من الذال تهمل الأولى وتعجم الثانية بنقطة واحدة علوية ، وكذلك الراء والزاى والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين وجعلا تمييز السين من الشين بإهمال الأولى وإعجام الثانية بثلاث نقط لأن لها ثلاث أسنان ؛ فلو أعجمت بنقطة واحدة لتوهم متوهم أن الجزء الذى تحت النقطة نون والباقى حرفان ، مثل الباء والتاء تسوهل فى إعجامهما وأما الباء والتاء والثاء والنون والياء فلم تجعل واحدة منهن مهملة ، بل أعجمت كلها ، أما الجيم والحاء والخاء فقد جعلت الحاء مهملة وأعجمت الأخريان ؛ واحدة من تحت والأخرى من فوق . أما الفاء والقاف فكان القياس أن تهمل أولاهما وتعجم الأخرى بنقطة كباقى الأحرف الزوجية ، كالدال والذال ، والراء والزاى ، وقد ذهب المشارقة إلى نقط الفاء بواحدة من أعلى والقاف باثنتين من أعلى أيضًا ، وذهب المغاربة إلى نقط الفاء بواحدة من أسفل والقاف بواحدة من أعلى وبعد أن قررا نقط بعض الحروف وإهمال البعض الآخر اتفقا على جمع الحروف المتشابهة بعضها بجانب بعض ، وتركوا الترتيب القديم وهو ترتيب (أبجد هوز حطى كلمن) كما تركوا الترتيب الحديث القائم على ترتيب المخارج وأولها العين ، واتبعوا ترتيبًا آخر هو الترتيب الهجائى : أ ب ت ث ج ح خ .

ولما كان هذا الإصلاح يستدعى اشتباه نقط الشكل بنقط الإعجام قرروا أن تكون نُقط الشكل بالمداد الأحمر ونقط الإعجام بنفس مداد الحروف ، وكتبت المصاحف بهذه الطريقة وإن خالفت مصحف عثمان .

وأصدر الحجاج أوامره للكتاب باتباع طريقة الإعجام وأبلغ عبد الملك ابن مرْوان فاستحسن ذلك وحمل الناس عليه ، ولم يختص ذلك بالمصاحف ؛ بل عم جميع الكتابة واستمر الأمر على اتباع الإعجام حتى الآن .

٣ ـ الشكل بطريق الحروف الصغيرة :

اتبع الناس فى دولة بنى أمية الإصلاح الأول الذى أدخله أبو الأسود الدؤلى والإصلاح الثانى الذى أدخله يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم . أما فى الدولة العباسية فقد أراد الناس أن يجعلوا الشكل بمداد الكتابة نفسه تيسيرًا للأمر ، وقد عنى الخليل بن أحمد بهذا الأمر فوضع طريقة أخرى للشكل وهى القائمة الآن بأن جعل للفتحة ألفا صغيرة مضطجعة فوق الحرف ، وللكسرة باء صغيرة تحته وللضمة واوا صغيرة فوقه ، وإن كان الحرف المحرك منونًا كرر الحرف الصغير ، ووضع للسكون الشديد (وهو ما يصاحب الإدغام) رأس شين بغير نقط (سـ) وللسكون الخفيف (وهو ما لا إدغام معه) رأس خاء بلا نقطة (حـ) ووضع للهمزة رأس عين (د) لقرب الهمزة من العين فى المخرج ، ولألف الوصل رأس صاد (صـ) توضع فوق ألف الوصل دائمًا وللمد الواجب ميما صغيرة مع جزء من الدال (مد) وبهذا وضع الخليل ثمانى علامات : الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة والمدة والصلة والهمزة .

وبهذه الطريقة أمكن أن يجمع الكتاب بين الكتابة والإعجام والشكل بلون واحد أ هـ[1] .

وهو ما عليه مصاحف اليوم .

---

(١) انظر الخطاطة الكتابة العربية د. عبد العزيز الدالى : ٥٤ ـ ٦٢ .

ترتيب الآيات والسور

أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك؛ فمنهم من لم يزد ومنهم من قال : ستة آلاف ومائتا آية وأربع آيات وقيل : وأربع عشرة آية وقيل : وتسع عشرة ، وقيل : وخمس وعشرون وقيل : وست وثلاثون [1].

وهذا الاختلاف لا يعتبر مصدر قلق ولا اضطراب ولا حيرة ولا ارتياب فى محكم الكتاب . أما مصدره فلظن بعض أرباب هذا الفن بأن الوقف فاصلة ، يعد ما قبلها آية ، والبعض الآخر عرف أنه وقف تام فلم يعده آية ، ولم يعتبر فاصلة . . فقد اتفقوا على أن الفاتحة سبع آيات فمن عد البسملة آية منها اعتبر الآية الأخيرة واحدة ومن لم يعد البسملة آية منها عد الوقف على (أنعمت عليهم) آية فصارت على الرأيين سبعا لم تنقص حرفا ولم تزد حرفا وهذا هو بيت القصيد .

أما ترتيب الآيات فى سورها فهو توقيفى أى بأمر من الشارع لا مجال للرأى والاجتهاد فيه ؛ لأن الاعتماد فيه على الوحى وتوقيف النبى صلى الله عليه

---

(١) الإتقان : ١ / ٦٧ .

وسلم. قال السيوطى فى الإتقان : « الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فى ذلك ؛ أما الإجماع فقد نقله غير واحد منهم : الزركشى فى البرهان ، وأبو جعفر بن الزبير فى مناسباته ، وعبارته : ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف فى ذلك بين المسلمين . انتهى [1].

وقال القاضى أبو بكر فى كتابه الانتصار : ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم ؛ فقد كان جبريل عليه السلام يقول : « ضعوا آية كذا فى مكان كذا » وقد حصل اليقين بذلك الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهل ترتيب السور توقيفى أيضًا أم بالاجتهاد ؟ أما السورة فمعناها كما اصطلح عليه العلماء : طائفة من القرآن مستقلة أقلها ثلاث آيات . وعدد سور القرآن ١١٤ سورة بلا خلاف ، وأما أن ترتيبها توقيفى أو اجتهادى ، فموضع نظر من العلماء حيث قال البعض : إنه توقيفى فما وضعت سورة فى مكانها إلا بأمر النبى صلى الله عليه وسلم وتوجيهه ، وقال بعض آخر : إنه من عمل الصحابة واجتهادهم وقول ثالث جمع بين القولين : فيقول بعض : الترتيب توقيفى والبعض الآخر : اجتهادى ، وقد تظاهر لهذا القول أبو جعفر النحاس والأنبارى والكرمانى .

والراجح القول الأول ؛ لأن اختلاف المصاحف فى الترتيب كان قبل العلم بالتوقيف فلما علم التوقيف انصاع الجميع وخضع لترتيب عثمان ، ولذلك كان الأخذ بترتيب المصحف العثمانى والالتزام به فى كتابة المصحف واجب لا محيص عنه سواء أكان الترتيب توقيفيا أم اجتهاديًا ، لأنه قد أجمعت عليه الصحابة ، والإجماع حجة ومصدر من مصادر التشريع ، فمخالفة الإجماع

---

(١) الإتقان : ٦٠ .

داعية إلى الفتنة وذريعة إلى الفساد ، ودرء الفتن ، وسد الذرائع المؤدية إلى الفساد واجب يحتمه الدين، وأصل من أصول شريعة خاتم النبيين والمرسلين.

وأما الأخذ بالترتيب فى التلاوة فليس بواجب بل هو أمر مندوب أى مستحب، كما أن الموالاة بين السور فى القراءة مستحب أيضًا ، وكره الإمام مالك مخالفة ترتيب المصحف فى الصلاة وغيرها ، وأما تعليم الصبيان بدءًا بقصار السورفأمر حسن تسهيلا عليهم وتدرجا من السهل إلى الصعب ، ومن السور القصار إلى الطوال والله أعلم .

المكى والمدنى

معرفة المكى والمدنى من المباحث المهمة لمن يزاول التفسير ، ومن يتصدى للقضاء ويتعرض للإفتاء ، وهو من أهم شروط الاجتهاد ومن لم يتقن معرفة المكى والمدنى لا يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى .

وقد اختلف العلماء فى اصطلاح المكى والمدنى على ثلاثة أقوال : الأول : وهو الأشهر وعليه الأكثر : أن المكى ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أو المدينة أو عام الفتح أو حجة الوداع أم بسفر من الأسفار .

يقول الجلال السيوطى : أخرج عثمان بن سعيد الرازى بسنده إلى يحيى ابن سلام قال : « ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل وصول النبى صلى الله عليه وسلم إليها فهو من المكى وما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى أسفاره بعد قدومه إلى المدينة فهو من المدنى . وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل فى سفر الهجرة مكى اصطلاحا »[1].

وعليه فإن آية (اليوم أكملت لكم دينكم)[2] من قبيل المدنى وإن كان نزولها بعرفة فى حجة الوداع مع أن عرفة من مكة ؛ لأن الآية نزلت بعد الهجرة .

---

(١) الإتقان : ١ / ٩ .

(٢) المائدة : ٣ .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ [1] مدنية أيضا ، وإن كانت قد نزلت بمكة وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى جوف الكعبة عام الفتح ، لأنها نزلت بعد الهجرة أيضا .

القول الثانى : أن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة ، ويدخل فى مكة ضواحيها كمنى وعرفات والحديبية فإنها من ضواحى مكة ، كما يدخل فى المدينة ضواحيها كبدر وأحد وبهذا التعريف لا يعتبر مكيا ولا مدنيا ما نزل فى الأسفار : قال صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة مكة والمدينة والشام » قال الوليد : يعنى بيت المقدس وقال ابن كثير : بل تفسيره بتبوك أحسن .

والثالث : أن ما وقع خطابا لأهل مكة فهو مكى ، وما وقع خطابا لأهل المدينة فهو مدنى ، وحمل على هذا قول ابن مسعود ما كان فى القرآن : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ أنزل بالمدينة وما كان فى القرآن : ﴿يأيها الناس﴾ فقد أنزل بمكة .

قلت : وفى القولين الأخيرين نظر لأن تعريفهما غير جامع ولا مانع خلافا للقول الأول فإنه جامع مانع فهو يتضمن الحصر ويلزم الاضطراد .

فوائد معرفة المكى والمدنى

ـ معرفة الناسخ والمنسوخ ، فإذا تعارضت آيتان إحداهما مكية والأخرى مدنية ، فالحكم تحكيم المدنية ونسخها للمكية لتأخر المدنية عن المكية فى النزول .

ـ المساعدة على معرفة تاريخ التشريع ؛ فالعلم بالمكى والمدنى وسيلة لمعرفة متى فرضت العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وغير

---

(١) النساء : ٥٨ .

ذلك مما تعبدنا به الله - سبحانه - فعلا أوتركا تحريم الخمر والربا وغير ذلك من المنهيات .

- معرفة حكمة الله فى إصلاح عباده وسنته الجارية فى ... .

- زيادة الثقة من المؤمن فى كتاب الله وحصانته من دس السم العسل من المستشرقين بما يثيرونه من شبهات وأضاليل ، ومفتريات وأكاذيب ... ل هذا الدين القويم .

وليس ثمة من سبيل إلى معرفة المكى والمدنى إلا النقل الصحيح عن الصحابة الذين كانوا يشاهدون مواقع النجوم ويعرفون أسباب النزول وعن التابعين الآخذين عنهم والناقلين منهم .

مميزات المكى

- الدعوة إلى أصول العقيدة ، والإيمان بالرسالة المحمدية ونبذ الشرك وعبادة الأوثان وإقامة الأدلة العقلية والكونية والأنفسية والحث على النظر فى الأنفس والآفاق (سنريهم أياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[1] .

- إقامة الحق على المشركين ومجادلتهم لبيان بطلان عبادتهم للأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ومنعهم من تقليد آبائهم فى باطلهم الواضح ، وجهلهم الفاضح .

- الحث على الآداب والفضائل الثابتة ، وأصول التشريعات العامة ، خصوصًا التشريعات التى هى محل اتفاق بين الأديان ، وهى حفظ النفس والمال والعقل والدين والنسب ، خصوصا الآيات التى تحث على الثبات على

---

(١) فصلت : ٥٣ .

العقيدة ، والآيات التى تدعو إلى الصلاة والصدقة والعفاف والصدق وصلة الرحم والبر بالوالدين والرحمة والعدل والعفو والإحسان والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، أو تنهى عن القتل والظلم وعقوق الوالدين ووأد الموءودة وهو نوع من القتل .

ـ ذكر قصص الأنبياء للعظة والاعتبار .

ـ قِصَر الآيات المكية ووجازتها مع بلوغ المعنى المقصود على أكمل وجه ، مما تتحداهم ببلاغتها لما كانوا عليه من البلاغة والفصاحة .

مميزات المدنى

ـ بسط الكلام عن دقائق التشريع والأحكام العملية فى العبادات والمعاملات ، وأنواع القوانين الجنائية والحربية والاجتماعية والمعاهدات الدولية والعلاقات الداخلية والخارجية .

ـ توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول فى الإسلام ، وكشف ألاعيبهم فى تحريف كتبهم وإبطال حججهم من عقائد أبوة الله وبنوة عزير والمسيح وقولهم بالتثليث والحلول والاتحاد أو الصلب . ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتى هى أحسن .

ـ معالجة شئون الجهاد وحكمة تشريع القتال وما يتعلق به من معاهدات الصلح وإنفاذ العهود وإبرام المعاهدات وحكم الغنائم والفىء وفك الأسرى وتحريم الفرار وتولية الأدبار وتوضيح ذلك وضوح الشمس فى رابعة النهار [1] .

ـ إطالة النفس فى الآيات المدنية والسور المدنية ؛ لأنها تعالج الأمور المتقدم

---

(١) انظر فى هذا مورد الظمآن فى علوم القرآن للدكتور على نصر .

ذكرها مما يتطلب الإسهاب والإطناب والبسط والشرح والتوضيح والتفصيل. وهذا الأسلوب يناسب أهل المدينة لقلة فصاحتهم ومعايشة اليهود لهم .

ـ الكشف عن فضائح المنافقين وبيان خبث نواياهم وسوء طواياهم وفساد طبائعهم واهتمامهم بشئون الدنيا دون أمور الآخرة .

ومن السور المكية والمدنية والحضرية والسفرية ما ذكره الجلال السيوطى فى كتاب النقاية له :

الأصح أن ما قبل الهجرة مكى وما بعدها مدنى . فالمدنى البقرة وثلاث تليها (أى آل عمران والنساء والمائدة) والأنفال وبراءة والرعد والحج والنور والأحزاب والقتال (سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) وتالياها (أى الفتح والحجرات) والحديد والتحريم وما بينهما (أى المجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقين والتغابن والطلاق) والقيامة والقدر والزلزلة والنحر والمعوذتين . قيل : والرحمن والإنسان والإخلاص والفاتحة . وقيل النساء والرعد والحج والحديد والصف والتغابن والقيامة والمعوذتان (مكيات)[1].

الحضـــرى والسفـــرى

الأول كثير ، والثانى : سورة الفاتحة وآية التيمم فى المائدة بذات الجيش[2] أو البيداء . كما نزلت آية : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾[3] بمنى و (آمن

---

(١) النقاية للسيوطى : مخطوط بمكتبة الأزهر .

(٢) ذات الجيش : (مكان من المدينة على بعد اثنى عشر ميلا) .

(٣) البقرة : ٢٨١ .

الرسول . . . إلى آخرها)[1] يوم فتح مكة و ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ [2] و ﴿ هذان خصمان ﴾ [3] ببدر ، و ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ [4] بعرفات ﴿ وإن عاقبتم ﴾ [5] بأحد .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .
(٢) الأنفال : بعض الآية الأولى .
(٣) الحج : ١٩ .
(٤) المائدة : ٣ .
(٥) النحل : ١٢٦ .

معرفة المناسبات بين الآيات

اعلم أن المناسبة علم شريف تقوم به العقول ، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، ولأهمية هذا العلم كتب فيه أساطين العلماء من المفسرين كالبقاعى وأبى جعفر الزبيرى الأندلسى النحوى الحافظ ، والفخر الرازى وغيرهم .

والمناسبة فى اللغة : المقاربة .

قال العز بن عبد السلام : المناسبة علم حسن ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر .

والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شىء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ؛ ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففى ذلك علم جم وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له . فإذا أنعمت النظر وأمعنت الفكر رأيت افتتاح كل سورة فى غاية المناسبة لما ختمت به السورة قبلها ، ولكن ذلك يخفى تارة ويظهر أخرى كافتتاح سورة الحديد بالتسبيح ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض ﴾ فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به فى قوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

وتأمل التقابل المعجز فى سورة الكوثر لما قبلها فى سورة الماعون .

ففى سورة الماعون وصف الله المنافق بأمور أربعة :

البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة فذكر فى سورة الكوثر فى مقابلة البخل : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ أى الكثير وفى مقابلة ترك الصلاة « فصلّ » أى دم عليها ؛ وفى مقابلة الرياء (لربك ﴾ أى لرضاه لا للناس فإن العمل من أجل الناس شرك والترك لأجلهم رياء وفى مقابلة منع الماعون : ؟ وانحر) وأراد به التصدق بلحم الأضاحى . فاعتبر أيها القارئ العزيز هذه المناسبة العجيبة .

وانظر إلى مناسبة افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح وسورة الكهف بالتحميد ؛ لأن التسبيح مقدم على التحميد فيقال : سبحان الله والحمد لله .

وحين أتعرض للمناسبات لا أستطيع أن أغفل القصة بمقوماتها الفنية فى القرآن تلك التى بهرت أعظم كتاب القصة قديما وحديثا فى الشرق والغرب ، وكذلك العظات والعبر والأمثال .

فالقصة ركناها الأساسيان : عقدة وحل سواء قصرت كالأقصوصة أو طالت كالقصة والحكاية والرواية ، فسورة يوسف مثلا على تعدد مراميها ونبل غاياتها لا تخرج عن طفل تاه « العقدة » وأبوه التقاه « الحل » ويتميز القصص القرآنى بالصدق فى الأخبار وهو مع روعته فى النسج وبلاغته فى التعبير فإن الخيال لا يتطرق إليه .

وقد يتعدد ذكر القصة فى القرآن ؛ لكن بأساليب مختلفة وإن كان المضمون واحدًا .

وقد تتم القصة القرآنية بجميع مقوماتها الفنية فيما لا يزيد على سطرين وإليك نموذجا يدل على صدق الدعوى .

قال تعالى فى سورة يونس :

﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ (١) .

فالعقدة عدم إيمان القوم فاستحقوا العذاب .

والحل : لما آمنوا كشف عنهم هذا العذاب .

أما البطل فهو يونس وأما المجموعة فهم القوم .

أما زمان القصة « الحياة الدنيا والاستمتاع إلى حين »

والمكان القرية . . أليست هذه مقومات القصة الفنية عند الكتاب ؟

ومن أغراض القصة فى القرآن إثبات الوحى والرسالة وتوحد القول من الله لسائر الأنبياء . . . وفى سورة الأنبياء مظهر واضح لوحدة الرسالة يمكنك معرفته من خلال ذكر أطراف من قصة موسى وهارون وإبراهيم ولوطا وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وذا النون وزكريا ومريم ثم يعقب الحق تبارك وتعالى على ذكرهم قائلاً : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (٢) .

وأن وسائل الأنبياء فى الدعوة واحدة واستقبال أقوامهم لهم متشابهة وقصة كل بنى منهم تتشابه مع الأخرى فى الدعوة والجهاد والبدء والختام :

تحقيق موعود الله من نصر أنبيائه وأحبائه وخذلان أعدائه فى مثل قوله تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ (٣) ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ (٤) ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ (٥) .

كما أن الموعظة ملازمة لما يذكر من قصة أو مثل أو غيره ، ويتجلى ذلك فى

---

(١) يونس : ٩٨ . (٢) الأنبياء : ٩٢ . (٣) الحج : ٤٠ .
(٤) آل عمران : ١٦٠ (٥) الروم : ٤٧ .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ (١) .

فالقصة القرآنية إحدى وسائل القرآن الكريم فى معالجة أخطر مسائل العقيدة ، وأن الغرض الدينى فى القصص القرآنى قد أريد له أن يتحقق عن طريق الجمال الفنى وبواسطته ، ومن هنا جاءت هذه القصص القرآنية لوحات رائعة حتى لكأن الناحية الفنية التصويرية فيها قد قصدت لذاتها ، ولهذا خُدِع المشركون حين تليت عليهم هذه القصص فقالوا فيها : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ (٢). وذلك بعد أن فاتهم ما سيقت هذه القصص من أجله يقول الإمام محمد عبده : « جاء القصص القرآنى لأجل الموعظة والاعتبار ، لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين » فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية، ولم يكن من عناصر القصة القرآنية عناصر القصة الخرافية أو الأسطورية ، لأن القرآن يستمد قصصه من حياة الناس ، حتى إنه ذكر بعض أولئك الذين تحدث عنهم فى أمثاله القصصية بأسمائهم أو اكتفى بذكر أوصافهم ، ولم يستمد واحدًا من أمثاله القصصية وغير القصصية من خرافة أو أسطورة حيوانية أو نباتية أو جمادية .

ومن الخصائص الفنية للقصة القرآنية ذكرها ملخصة تارة ، وذكر مغزاها تارة أخرى ، وطورا ثالثا تذكر القصة بلا مقدمات ليتحقق عنصر المفاجأة فى مثل قصة ولادة المسيح عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ من غير أب ، وقصة نبى الله سليمان مع الهدهد أو بلقيس ملكة سبأ مع سليمان التى انتهت بقولها : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ (٣).

---

(١) يوسف : ١١٠ . (٢) الفرقان : ٥ .
(٣) النمل : ٤٤ .

وقد تتحول القصة إلى حوار شائق جذاب فى مثل ما جرى بين الخليل والنمرود :

قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت .

قال النمرود : أنا أحيى وأميت .

قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر . [1]

وفى مثل قصة موسى وفرعون .

قال موسى وأخوه هارون : إنا رسول رب العالمين .

قال فرعون : ألم نربك فنيا وليدا ولثبت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين .

قال موسى : فعلتها إذا وأنا من الضالين . ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل .

قال فرعون : وما رب العالمين ؟

قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين

قال لمن حوله ألا تستمعون .

قال ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون .

قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين .

قال أو لو جئتك بشىء مبين .

قال فأت به إن كنت من الصادقين . . . الآيات [1].

ويستمر هذا الحوار الرائع بين المتحاجين ثم تكون الغلبة والنصر لله ورسوله فيتألق الحق ويندحر الباطل ويدخل الناس فى دين الله أفواجًا .

أما قصة الخليل إبراهيم مع ولده إسماعيل وهو يهم بذبحه فيشد انتباهك فيها المناقشة الهادئة بين الأب والابن والحوار البناء فى كيفية تنفيذ أمر الحق سبحانه وتعالى وما يظهر لك فيها من امتثال المأمور ، وبر الابن ومساعدة أبيه على طاعة الله .

قال الأب : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟

قال الابن : ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين [2]
تلك بعض سمات القصة فى القرآن وهى سمات تيسر القول بأن : « القرآن يجعل من الجمال الفنى أداة مقصورة للتأثير الوجدانى ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية » [3].

---

(١) الشعراء : ١٦ ـ ٥١ .

(٢) الصافات : ١٠٢ .

(٣) التصوير الفنى فى القرآن للأستاذ سيد قطب .

الأمثال في القرآن

ما أكثر الذين تحدثوا عن أهمية الأمثال العربية حتى ذهب بعضهم إلى أنها حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام .

وإذا كانت الأمثال بهذه المكانة الرفيعة والمنزلة المرموقة لما فيها من جوامع الكلم ونوادر الحكم ؛ لأن الأمثال فى كل أمة هى خلاصة تجربتها ومحصول خبرتها والمرآة التى تنعكس على صفحتها عادات الأمة وأخلاقها وأفكارها وسائر مظاهر حياتها فى كل شأن من شؤونها . إذا كانت الأمثال بهذه المثابة فلا غرابة أن تكون الأمثال القرآنية قد بلغت الغاية القصوى فى الأهمية ؛ لما بلغته من براعة التصوير ودقة التعبير ولتناولها كل ما من شأنه أن ينير للإنسان طريقه فى الحياة ويبدد أمامه ظلمات الجهل والضلال .

فهى كوسائل الإيضاح تعين الطالب على فهم الدرس وتوقفه على طبائع الأشياء وحقائقها .

والأمثال القرآنية بعد هذا أحكام وإن لم ترد على ما ألف أن تجىء عليه الأحكام من الأمر بالشىء أو النهى عنه بشكل مباشر ؛ لأن التمثيل القرآنى ـ وإن كان تصويرًا للأشياء ليس تصويرًا وتشخيصًا لها لمجرد الرغبة فى التصوير والتشخيص وإنما أريد به إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإظهار الأشياء على ما

هى عليه ، وحكم لهذه الأشياء أو حكم عليها . ولذلك ذهب الشافعى رضى الله عنه إلى أنه مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن علم أمثاله ، كما اعتبرها الماوردى من أهم علوم القرآن [1] فالمثل وسيلة إدراك ما لا يمكن إدراكه ، وقد عرفه الأدباء بأنه القول السائر الممثل بمضربه أى المشبه حالة مضربه بحالة مورده أى الحالة التى ورد فيها القول . فهو استعارة تمثيلية مبنية على التشبيه المركب كقولك للمتردد فى فعل أمر من الأمور :

ـ ما لى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ؟

وقيل فى ضابط المثل : إنه إبراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا، والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد ، كما لا يشترط أن يكون مجازًا مركبًا .

ومن سمات المثل : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية .

ولقد وردت الأمثال فى القرآن ، ولا يستطيع باحث أن يتغافل عن ورودها فيه ، ولا عما يترتب على ذلك من شرف مكانتها ، وسمو منزلتها ؛ إذ لولا عظم شأنها لما تضمنها ، فضلا عن إكثاره منها ، كما أكثر من الآيات التى أشادت بها .

ومن أبرز تلك الأمثال تمثيل الله ما اتُّخِذَ من دونه وليا كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، ولما عاب المشركون ضرب الأمثال بالأشياء الحقيرة كالذباب والبعوض والعنكبوت رد عليهم الحق تبارك وتعالى قائلاً : ﴿ إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾ [2] فأكد سبحانه أنه لا

---

(١) نظرية المعنى فى النقد العربى للدكتور مصطفى ناصف .

(٢) البقرة : ٢٦ .

يستنكف من ضرب الأمثال بما هو أصغر وأحقر من تلك التى استصغروها وحقروها ، وضارب المثل رسام ، وبراعة الرسام لا تظهر فى قدرته على إظهار الجميل بمظهر القبيح ولا القبيح بمظهر الجميل ، وإنما تتجلى براعته فى قدرته على المشابهة والمطابقة بين الصورة وصاحبها .

كما أن ضارب المثل مرآة صادقة وما على المرآة من عتب فى إظهارها للقبيح من الأشياء قبحه ، وللجميل منها جماله .

وقد امتن الله سبحانه على الناس بضرب الأمثال فقال : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل . . . ﴾ [1].

والأمثال من الأسلحة التى كان لها أثرها الفعال فى الصراع العقدى بين النبى وبين خصومه الذين قال الله فيهم : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [2] .

وإذا كانت أمثال القرآن نارًا أحرقت أباطيل المبطلين ، وسيوفا ماضية شهرت فى وجوه المعاندين والمكابرين ؛ فإنها نور يكشف للناس الغى من الرشاد ، والهدى من الضلال ويميز به الخبيث من الطيب . إذا كانت كذلك فهى ليست تصويرًا وتشخيصًا للأشياء لمجرد الرغبة فى التصوير والتشخيص ، وإنما هى إحقاق للحق وإزهاق للباطل وحكم للشىء أو عليه ، وفيها العبرة لمن اعتبر ، والتذكرة لمن شاء أن يتذكر ؛ فهى تجسد ذلك وتبرزه من طريق الصورة ومن هنا كانت الأمثال خير باعث على التذكر والتفكر والاعتبار .

قال تعالى : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ [3] وقال :

---

(١) الروم : ٥٨ . (٢) براءة : ٣٢ .
(٣) إبراهيم : ٢٥ .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ [1] ولذلك فإن الأمثال تتطلب علما يعين على فهمها وإدراك ما فيها من عظات وعبر وحكم .

قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [2] .

كما أن الأمثال القرآنية أحكام وتشريعات ، وإن جاءت على غير ما عهده الناس من مجيء التشريعات والأحكام من أساليب . فإذا كانت هذه أهمية الأمثال فى القرآن الكريم فلا غرابة أن يراها الرسول صلى الله عليه وسلم من أوجه القرآن الخمسة فيقول :

« إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال » [3].

ومن أنواع الأمثال فى القرآن الأمثال المصرحة كقوله تعالى فى معرض ذكر المنافقين ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا . . . الآية ﴾ [4].

والأمثال الكامنة : وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها :

ما فى معنى قولهم : « خير الأمور الوسط » قوله تعالى :

فى سورة البقرة : ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ [5].

---

(١) الحشر : ٢١ .
(٢) العنكبوت : ٤٣ .
(٣) البرهان الجزء الأول ، الإتقان الجزء الثانى .
(٤) البقرة : ١٧ ـ ٢٠ .
(٥) البقرة : ٦٨ .

وفى سورة الفرقان : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا ﴾ [1].

وفى سورة الإسراء : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ [2].

وفى سورة الإسراء أيضا فى الاقتصاد فى النفقة : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ [3].

وما فى معنى قولهم : ليس الخبر كالعيان .

قوله تعالى فى سورة البقرة حاكيا عن إبراهيم عليه السلام ﴿ قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ [4].

وما فى معنى قولهم : « كما تدين تدان » .

قوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ [5].

أما النوع الثالث من الأمثال فهو الأمثال المرسلة وهى جمل أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه فهى آيات تجرى مجرى الأمثال ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ [6].

﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ [7].

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ﴾ [8].

---

(١) الفرقان : ٦٧ .
(٢) الإسراء : ١١٠ .
(٣) الإسراء : ٢٩ .
(٤) البقرة : ٢٦٠ .
(٥) النساء : ١٢٣ .
(٦) يوسف : ٥١ .
(٧) يوسف : ٤١ .
(٨) البقرة : ٢١٦ .

﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ [١].

ومن فوائد الأمثال إبراز المعقول فى صورة المحسوس .

وكشف الحقائق وعرض الغائب فى معرض الحاضر .

وجمع المعانى المسهبة فى عبارات موجزة .

وقد يضرب المثل للتنفير حتى تشمئز النفوس فلا تقدم على ارتكاب الفعل المنهى عنه كما فى قوله تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ﴾ [٢].

كما يضرب فى مدح الممثل فى مثل قوله فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . . إلى قوله : ﴿ ذلك مثلهم فى التورارة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه . . . . الآية ﴾ [٣].

فالأمثال أوقع فى النفوس وأبلغ فى الوعظ وأقوى فى الزجر ، وأبهر فى الإقناع، والأمثال فى السنة النبوية الشريفة لا تقل شأنا ولا خطرا عنها فى القرآن، وكان صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يستعملها . . وكتب السنة مليئة بمثل هذه الأمثال فلتطلب فى مظانها .

وأختم هذا النوع من الأمثال بأحسن مثل ذكر فى قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض . . . الآية ﴾ [٤]فإن فيها خمس تخلصات : وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة ثم تخلص من ذكرها

---

(١) فاطر : ٤٣ .

(٢) الحجرات : ١٢ .

(٣) الفتح : ٢٩ .

(٤) النور : ٣٥ .

إلى صفة الزيت ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء [1].

وفى تعليق على هذا المثل المضروب فى الأدنى بالأعلى ما قاله أبو تمام حين وصف المأمون قائلاً :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقيل له إن الخليفة أعلى ممن مثلته بهم فقال على الفور :

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس [2]

وخلاصة القول فى المثل : أنه القول الموجز السائر الممثل مضربه بمورده ، والحكم الجارية على الألسنة أو القائم صدقها فى العقول ، ويمكن استعارته للصفة والقصة والحال إذا كان لأى منها شأن وفيها غرابة .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للبرهان الزركشى .

(٢) تفسير النسفى / سورة النور .

أقسام القرآن

ومن مناسبات الآى ما أفرده ابن قيم الجوزية بالتصنيف فى مجلد أسماه التبيان والقصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده حتى جعلوا مِثْل : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ قسما وإن كان فيه إخبار بشهادة ؛ لأنه لما جاء توكيدًا للخبر سمى قسما .

وقد يتساءل البعض : ما معنى القسم من الله سبحانه وتعالى فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد ورود الخبر من غير قسم ، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده ذلك والجواب على هذا التساؤل بأن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمرًا .

كما أجاب أبو القاسم القشيرى صاحب تفسير « لطائف الإشارات » بأن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها وذلك لأن الحكم يفصل باثنين : إما بالشهادة ، وإما بالقسم فذكر تعالى فى كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة فقال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم . . . ﴾ [١] وقال : ﴿ قل إى وربى إنه لحق ﴾ [٢].

---

(١) آل عمران : ١٨ .

(٢) يونس : ٥٣ .

وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون , فورب السماء والأرض إنه لحق . . . ﴾ [1]صرخ الأعرابى وقال : من الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين ؟

ولا يكون القسم إلا باسم معظم . وقد أقسم الله تعالى بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع ، والباقى كله قسم بمخلوقاته . [2]

أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : ﴿ إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله » .

يقول القرطبى : المحلوف به هو الله سبحانه وأسماؤه الحسنى كالرحمن والرحيم والسميع والعليم والحليم ونحو ذلك من أسمائه وصفاته العليا كعزته وقدرته وعلمه وإرادته وكبريائه وعظمته وعهده وميثاقه وسائر صفات ذاته ، لأنها يمين بقديم غير مخلوق فكان الحالف بها كالحالف بالذات .

واختلفوا فى الحلف بالقرآن ، ومن المعروف عن ابن مسعود جواز الحلف بالآية الواحدة من القرآن ، وبه قال الحسن البصرى وابن المبارك .

وقال أحمد : ما أعلم شيئًا يدفعه . وقال أبو عبيد : يكون يمينا واحدة . وقال أبو حنيفة : لا كفارة عليه ، وكان قتادة يحلف بالمصحف . وقال أحمد وإسحاق : لا نكره ذلك .

ولا تنعقد اليمين بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته وقال أحمد بن حنبل : إذا حلف بالنبى صلى الله عليه وسلم انعقدت يمينه ؛ لأنه حلف بما لا يتم الإيمان إلا به فتلزمه الكفارة كما لو حلف بالله[3] .

---

(١) الذاريات : ٢٢ ، ٢٣ .   (٢) الإتقان / الجزء الثانى .
(٣) الجامع لأحكام القرآن / سورة المائدة

وقد ذكر الله تعالى فى الكفارة الخصال الثلاث ، فخير فيها وعقب عند عدمها بالصيام ، وبدأ بالطعام لأنه كان الأفضل فى بلاد الحجاز لغلبة الحاجة إليه وعدم شبعهم .

ولا خلاف فى أن كفارة اليمين على التخيير . قال ابن العربى : والذى عندى أنها تكون بحسب الحال ؛ فإن علمت محتاجا فالطعام أفضل ؛ لأنك إذا أعتقت لم تدفع حاجتهم وزدت محتاجا يضاف إلى العشرة مساكين ، وكذلك الكسوة تليه ، ولما علم الله الحاجة بدأ بالمقدم المهم ، ولابد من تمليك المساكين ما يخرج لهم ، ودفعه إليهم حتى يتملكوه ويتصرفوا فيه لقوله تعالى : ﴿ وهو يطعم ولا يُطعَم ﴾ [1]وبه قال الشافعى والإطعام عند مالك مد لكل واحد من المساكين العشرة والمد نصف قدح بالكيل المصرى .

وقال أبو حنيفة : يخرج من البر نصف صاع ، ومن التمر والشعير صاعا .

قال مالك : إن غدَّى عشرة مساكين وعشّاهم أجزأه .

وقال الشافعى : لا يجوز أن يطعمهم جملة واحدة ، لأنهم يختلفون فى الأكل ، ولكن يعطى كل مسكين مدًّا .

قال القرطبى : لا يجوز عندنا (أى معشر المالكية) دفع الكفارة إلى مسكين واحد وبه قال الشافعى . وأصحاب أبى حنيفة يمنعون صرف الجميع إلى واحد دفعة واحدة ويختلفون فيما إذا صرف الجميع فى يوم واحد بدفعات مختلفة؛ فمنهم من أجاز ذلك ، وأنه إذا تعدد الفعل حسن أن يقال فى الفعل الثانى : لا يمنع من الذى دفعت إليه أولا فإن اسم المسكين يتناوله . وقال آخرون : يجوز دفع ذلك إليه فى أيام ، وإنّ تعدد الأيام يقوم مقام أعداد

---

(١) الأنعام : ١٤ .

المساكين . وقال أبو حنيفة : يجزئه ذلك ؛ لأن المقصود من الآية التعريف بقدر ما يطعم فلو دفع ذلك القدر لواحد أجزأه . ودليلنا نص الله تعالى على العشرة فلا يجوز العدول عنهم . وأيضًا فإن فيه إحياء جماعة من المسلمين ، وكفايتهم يومًا واحدًا فيتفرغون فيه لعبادة الله تعالى ولدعائه فيغفر للمكفر بسبب ذلك والله أعلم .

(أو كسوتهم) والكسوة فى حق الرجال الثوب الواحد الساتر لجميع الجسد، فأما فى حق النساء فأقل ما يجزئهن فيه الصلاة وهو الدرع والخمار ، وهكذا حكم الصغار فكسوتهن كبيرة كالكبار قياسا على الطعام . وقال أبو حنيفة والشافعى والثورى والأوزاعى : أقل ما يقع عليه الاسم وذلك ثوب واحد وفى رواية أبى الفرج عن مالك ، وبه قال النخعى ومغيرة « ما يستر جميع البدن بناء على أن الصلاة لا تجزئ فى أقل من ذلك » .

ولا تجزئ القيمة عن الطعام والكسوة وبه قال الشافعى وقال أبو حنيفة : تجزئ القيمة فى الكفارة كما تجزئ فى الزكاة .

وإذا دفعت الكسوة إلى ذمى أو عبد لم تجزئ ، وقال أبو حنيفة تجزئ ؛ لأنه مسكين يتناوله لفظ المسكنة ويشتمل عليه عموم الآية .[1]

(فمن لم يجد) معناه لم يجد فى ملكه أحد هذه الثلاثة من الإطعام أو الكسوة أو عتق الرقبة بإجماع ، فإذا عدم هذه الأشياء الثلاثة صام ثلاثة أيام متتابعات وقال مالك والشافعى فى قوله الآخر : يجزئه التفريق لأن التتابع صفة لا تجب إلا بنص أو قياس على منصوص وقد عدّما يقول أبو القاسم القشيرى : والقسم بالشىء لا يخرج عن وجهين : إما لفضيلة كقوله :

---

(١) راجع جامع الأحكام للقرطبى / سورة المائدة .

﴿وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾ أو لمنفعة كقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون﴾ .

وقد أقسم الله تعالى بثلاثة أشياء : بذاته كالآيات السابقة وبفعله نحو : ﴿والسماء وما بناها . . . الآيات﴾ وبمفعوله نحو : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ، ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ .

وقد يكون القسم ظاهرا أو مضمرًا فالظاهر كالآيات السابقة وأما المضمر فقسمان : قسم دلت عليه اللام فى مثله قوله تعالى : ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم . . . . الآية ﴾ وقسم دل عليه المعنى فى مثل قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ وتقديره والله .

وأسلوب القسم ثلاثة أمور :

١ ـ أداة القسم .

٢ ـ المقسم به .

٣ ـ المقسم عليه .

أداة القسم : الصيغة الأصلية للقسم : أقسم أو أحلف مع تعدى الفعل بالباء إلى المقسم به كقوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن . . . ﴾ .

ولما كان فعل القسم يكثر فى الكلام جاز حذفه والاكتفاء بالباء ثم عوض عن الباء بالواو فى الأسماء الظاهرة كقوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [١] وبالتاء فى لفظ الجلالة كقوله تعالى : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم . . . الآية﴾[٢] وهذا قليل أما الواو فكثيرة .

---

(١) والليل : الآية الأولى .   (٢) الأنبياء : ٥٧ .

المقسم به : وهو أمر جليل وخطر عظيم وليس لأحد أن يقسم بما شاء سوى الله سبحانه وتعالى ، وليس ذلك لغيره من المخلوقات .

المقسم عليه : مما يراد توكيده وتحقيقه ولاسيما إذا كان من الأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها كقوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى ﴾ [(١)].

وجواب القسم يذكر تارة وهو الغالب ، ويحذف تارة أخرى فى مثل قوله تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ فجواب القسم محذوف دل عليه قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ﴾[(٢)] والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

معنى لا أقسم .

أدخلت « لا » النافية على فعل القسم فى بعض المواضع كقوله تعالى : ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [(٣)] ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ [(٤)] ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ [(٥)].

وقد ذكر المفسرون فيها عدة آراء نذكر منها :

- أن لا النافية إنما جاءت لمحذوف يناسب المقام وتقديره لا صحة لما تزعمون من إنكار البعث والحساب فقال أقسم بيوم القيامة . . وعلى قراءة ابن كثير: لأقسم (اللام للتوكيد وليست نافية) والتقدير أنكم ستبعثون .
- لا زائدة إن صح التعبير حيث لا زيادة فى القرآن . ولذلك فإن أهل الأدب مع الله يقولون : إنها للتوكيد .

---

(١) النجم : ١ ـ ٤ .
(٢) القيامة : ١ ـ ٣ .
(٣) الواقعة : ٧٥ .
(٤) الأنشقاق : ١٦ .
(٥) الحاقة : ٣٨ .

- ما قاله أبو مسلم من أن « لا » لنفى القسم فكأنه تعالى يقول : أسألك غير مقسم لأنى لا أقسم بذلك اليوم ولا بنفسك التى بين جنبيك . . أتحسب أنا لا نجمع عظامك . إذا تفرقت بالموت ؟ إن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك . فظاهر الكلام نفى القسم ولكن المراد بهذا النفى التوصل إلى التأكيد وكأنه سبحانه يقول : الأمر بين فلا حاجة بنا إلى القسم عليه . وهذا القول يؤكد الخبر أشد تأكيد [1] .

وأختم هذا المبحث بقسم الله سبحانه وتعالى بحياة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لما فيها من فوائد جمة تعود على هذه الأمة كمماته صلى الله عليه وسلم كما قال : « حياتى خير لكم ومماتى خير لكم . . . الحديث » [2] .

قال تعالى : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ [3] .

أخرج البيهقى فى الدلائل وأبو نعيم فى الحلية وغيرهم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : « ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله سبحانه أقسم بحياة أحد غيره . ولا عجب ؛ فإن الذى أخذ الميثاق على سائر النبين أن يؤمنوا به وينصروه ويشهدهم ثم يشهد عليهم بذلك لا جرم أن يفرده بالقسم بحياته دون سائر النبيين . والله أعلم .

---

(١) فى نور القرآن / دكتور : عبد الله شحاته .

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه .

(٣) الحجر : ٧٢ .

الأحرف السبعة

هذا المبحث من أهم المباحث التى تتعلق بالكتاب المبين ، وهو مبحث شائك ، وعر المسالك ، صعب على كل سالك حيث تعددت المعانى حول الحرف القرآنى حتى تأبّى فهم المراد من الأحرف السبعة على بعض العلماء ؛ فآثر السلامة بالسكوت عن تأويل الأحاديث المتواترة فى إنزال القرآن على سبعة أحرف ؛ لأنهم عدوها من المشكل المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم .

ويحضرنى بهذه المناسبة حوار إذاعى دار بين الأستاذ العقاد رحمه الله وأحد المذيعين الذى سأله : لو أنك التقيت برسول الله صلى الله عليه وسلم فعن أى شىء كنت سائله ؟ فأجاب على الفور :

ـ كنت أسأله عن معنى الأحرف السبعة .

وقد اختلفوا فى تفسيرها على نحو أربعين قولا أوردها العلامة السيوطى فى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » كما أيد هذا الرأى ولى الله الصفاقسى [(١)].

قال العلامة الكوثرى فى مقالاته : [(٢)]

---

(١) غيث النفع للصفاقسى ص ١٠ ط مصطفى البابى الحلبى .

(٢) مقالات الكوثرى ص ٣١ مطبعة الأنوار .

والواقع أن القرآن الكريم كان ينزل معظمه على لغة قريش على حرف واحد إلى أن فتحت مكة وبدأ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا وأخذت القبائل العربية المختلفة تتوافد فأذن الله سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقرأوا القرآن على لغتهم ولهجاتهم تيسيرًا لهم لصعوبة تحولهم من لغتهم إلى لغته كما يدل على ذلك حديث أبى بن كعب رضى الله عنه عند البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم .

قال الطحاوى فى مشكل الآثار :

إنما كانت السعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم فوسع لهم فى اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقًا ، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستطاعوا بذلك حفظ ألفاظه فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها أ هـ.

قال القرطبى : قال ابن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد [1].

ويقول الأستاذ الدكتور الكومى أستاذ التفسير والحديث بكلية أصول الدين حين تعرض لحديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » هذا الحديث نزل فى آخر العهد المدنى حين دخلت القبائل المختلفة الإسلام بعد صلح الحديبية ، فكان ترخيصا للقبائل أن تقرأ القرآن بما لقنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ يستعملونها فيما بينهم لا وجود لها فى لغة قريش ، وكانت هذه رخصة للقبائل لأنهم لم يتعودوا لسان قريش حيث كانت وسائل المواصلات فى الجاهلية شبه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ـ تفسير القرطبى ط الشعب .

منعدمة ، والقبائل يحارب بعضها بعضا ولكل قبيلة نظامها ودستورها ورئيسها وكان نظام الغاب سائدًا بينهم ، أى الحرب القبلية التى لا مبدأ لها إلا غلبة القوى على الضعيف ، وجاء هذا الحديث فى وقت دخول القبائل ، وبناء على سؤال الرسول حين سأل ربه التخفيف فرخص له فى حرفين إلى سبعة كما جاء فى الحديث وكان فى كل مرة يقول : « إن أمتى لا تطيق ذلك ، لعلمه بلغات العرب جميعًا ، وهنا لابد لنا أن نعلم أن الرسول علم لغات العرب إما بالوحى أو بمجرد قوة إدراكه واتصاله الخاص ببعض القبائل ، ولكننا نرجح أن علمه بكل لغات العرب كان معجزة أظهرها الله على يده ، وكتب بها لكل القبائل كل بلغته ، ومن هنا ترى الرسائل النبوية مشتملة على ألفاظ وأساليب لا نألفها الآن كما نألف القرآن الكريم الذى كتب بلغة قريش ونزل بها فى تسعة عشر عاما من لدن البعثة إلى صلح الحديبية ، فلما كان عام الوفود وجاءت القبائل تتلقى عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كقوله لأحد الوافدين : « إنا أنطيناك الكوثر » بدلاً من « إنا أعطيناك الكوثر » ، وكقوم صلى الله عليه وسلم : « ليس من إمبرم صيامٌ فى امسفر » بدلاً من : « ليس من البر الصيام فى السفر » وكلغة الكسكسة والكشكشة مثل : « قد جعل ربش تحتش سريا » أو: «قد جعل ربش تحتش سريا » وذلك بدلاً « قد جعل ربك تحتك سريا» . وليس معنى هذا أنه أقرأ كل قبيلة القرآن كله إنما كان يقرؤهم بحسب ما يتيسر لحفاظهم وما يحتاجون إليه ، وإذًا فالكتابة بالأحرف السبعة لم تكن إلا بين يدى هذه القبائل ولأجلها .

أما كتاب الوحى منذ نزل القرآن بمكة فكانوا يكتبون بحرف قريش وفى القرآن أكثر من ٨٧ سورة مكية وكتاب الوحى كلهم قرشيون كتبوا بها وكذلك فى الشطر الأول من العهد المدنى ، وما حدث فى الأحرف والكتابة بها للقبائل لم يكن من كتاب الوحى الرسميين الذين يكتبون للرسول صلى الله عليه وسلم فى اللخاف والعسب فيما كان يحتفظ به هو أو تحتفظ به الصحابة لأنفسهم

بالمدينة ، فكلها كانت بحرف قريش ، ومن هنا كانت الصحف البكرية «نسبة إلى أبى بكر الصديق » نسخة من عين ما كتب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم بلغة قريش ، وكان المصحف العثمانى نسخة منها وليس لاختلاف القراءات دخل فى اختلاف الأحرف .

فالقراءات كلها بلغة قريش ، وما جاء به الصحابة لزيد بن ثابت لينسخه فى الصحف كان من عين ما كتب بين يدى الرسول بكتابه الرسميين وبكتابة الصحابة لأنفسهم ، وكذلك فعلت اللجنة فى المصحف العثمانى ، ولا يشكل على ذلك قول عثمان لِلَّجنة : « ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش » لأن زيْدًا كان أخبر الناس بكتابة ما نزل من الوحى إذ أنه الكاتب الأول للوحى القرآنى ، وإذًا فكان المصحف العثمانى جمعا للأمة على حرف قريش ، وكانت اللغة السائدة وقتئذ ، ولهذا عزم عثمان على من كان عنده شىء من الأحرف الأخرى أن يحرقها ، لكنه لم يمنع صاحبها من قراءة ما سمعه من الرسول لأنه قرآن فى حقه وهو مستوف للشروط القرآنية ، وإذًا فالاختلاف بين القبائل فى أذربيجان كان ناشئًا عن اختلاف الحروف التى كانت تقرأ بها وكتبتها لنفسها فكان جمع الناس على المصحف لمنع هذه الخلافات .

وفى ختام هذا العرض أقول : إن القرآن مشتمل على الأحرف السبعة بمعانيها المختلفة لقوله تعالى : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ [1] وأن وجوه القراءات تدخل ضمن هذه الأحرف ، وأن القراءات العشر المتواترة مما هو معلوم من الدين بالضرورة [2]. ولا يضر الجهل بها .

---

(١) الأنعام : بعض آية ٣٨ .

(٢) انظر كتابنا « شرح طيبة النشر فى القراءات العشر ـ المقدمة .

سبب ورود الحديث على سبعة أحرف

التخفيف على هذه الأمة ، وإرادة اليسر بها ، وإجابة لمقصد نبيها صلى الله عليه وسلم حيث قال : « أسأل الله معافاته . . . . الحديث »[1] .

معـــنى الأحــرف

قال أهل اللغة : حرف كل شيء طرفه ووجهه وحافته وحده وناحيته والقطعة منه .

والحرف أيضًا : واحد حروف التهجى .

قال الداني : يحتمل الحرف هنا وجهين :

أحدهما : أن القرآن أنزل على سبعة أوجه من اللغات لأن الحرف يراد به الوجه كقوله تعالى : ﴿ من يعبد الله على حرف ﴾[2] أى على وجه مخصوص .

والآخر : أنه سمى القراءات أحرفا على طريق السعة كعادة العرب فى تسميتهم الشىء باسم ما هو منه وما قاربه وما جاوره .

---

(۱) أخرجه مسلم فى صحيحه .

(۲) الحج :

قال ابن الجزرى : « ولى نيف وثلاثون سنة أمعن النظر فى هذا الحديث حتى فتح الله على بشىء أرجو أن يكون هو الصواب وذلك أنى تتبعت القراءات كلها فإذا اختلافها يرجع إلى سبعة أوجه خاصة .

إما فى الحركات بلا تغير فى المعنى والصورة نحو البخل بوجهين أو بتغير فى المعنى فقط نحو :

﴿ فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ ﴾ وهى قراءة ابن كثير المكى بتقديم المفعول على الفاعل .

وإما فى الحروف بتغير فى المعنى لا فى الصورة نحو : تبلواْ ، وتتلواْ أو عكسه نحو : الصراط والسراط أو بتغيرهما معا نحو :

(أشد منكم ومنهم) وإما فى التقديم والتأخير نحو : (يُقْتَلُون ويَقْتُلُون) أو فى الزيادة والنقصان نحو : ووصى وأوصى .

وأما نحو اختلاف الإظهار والتفخيم والمد والإمالة والإبدال وتحقيق الهمز ونقله وأضدادها مما يعبر عنه بالأصول فليس من الخلاف الذى يتنوع فيه اللفظ أو المعنى لأن هذه الصفات المتنوعة فى أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظا . واحدًا ثم رأيت الإمام أبا الفضل الرازى حاول ما ذكرته وكذلك ابن قتيبة والله تعالى أعلم[١].

وأما فائدة اختلاف القراءات وتنوعها فقد جمعها ابن الجزرى فى كتابه «النشر » فى نقاط عدة رأيت أن أذكرها لك أيها القارئ الكريم تماما للفائدة ، وحثا على الوقوف على أسرار هذا الفن المعجز بلفظه ومعناه فمنها ما فى ذلك من نهاية البلاغة وكمال الإعجاز وجمال الإيجاز وغاية الاختصار .

---

(١) شرح طيبة النشر فى القراءات العشر الجزء الأول بتحقيقنا .

ومنها ما فى ذلك من عظيم البرهان ووضوح الدلالة فالاختلاف فى القرآن اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ولا تناقض ؛ بل كله يصدق بعضه بعضه ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد مما يدل على صدق من جاء به صلى الله عليه وسلم .

ومنها سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة كما أن منها فتح باب الاجتهاد لمن تتوفر فيهم شروطه من الاستنباط والتوجيه والكشف والتعليل والترجيح والتفصيل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، والأجر ـ كما يقولون ـ على قدر المشقة .

ومنها بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم بإقبالهم على كتاب الله وحمايته من التحريف والتبديل والعمل بما جاء به .

ولو لم يكن من خصوصيات هذه الأمة إلا محافظتها على الإسناد لكفت ولو لم يكن من خصائصها إلا هذه الخاصية لوفت .

رأى جديد فى الأحرف السبعة

أجمع علماء الأمة على أن الأحرف السبعة ليس أن يقرأ الحرف الواحد على سبعة أوجه إذ لا يوجد ذلك إلا فى كلمات يسيرة نحو « أفّ » و « جبريل » و«هيهات» و « هيت » .

كما أجمعوا على أنه ليس المراد بالسبعة هؤلاء المشهورين لعدم وجودهم فى ذلك الوقت ثم اختلفوا فقال أكثرهم هى لغات ثم اختلفوا أيضا فى تغيينها فقال أبو عبيد : القاسم بن سلاّم قريش وهذيل وثقيف وهوازن وكنانة وتميم واليمن وقال غيره : خمس لغات فى أكناف هوازن ؛ سعد وثقيف وكنانة وهذيل وقريش ولغتان على جميع ألسنة العرب وقال الهروى : سبع لغات من

لغات العرب أى أنها متفرقة فى القرآن فبعضه بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن . وفى هذه الأقوال كلها نظر فإن عمر وهشاما اختلفا فى سورة الفرقان وكلاهما قرشيان من لغة واحدة . وقيل المراد بها معانى الأحكام كالحلال والحرام والمحكم والمتشابه والأمثال والإنشاد والإخبار وقيل الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والمجمل والمبين والمفسر ، وقيل : الأمر والنهى والطلب والدعاء والخبر والاستخبار والزجر ، وقيل : الوعد والوعيد والمطلق والمقيد والتفسير والإعراب والتأويل ، وفى هذه الأقوال أيضًا نظرًا ؛ فإن سببه وهو اختلاف عمر وهشام لم يكن إلا فى قراءة حروف لا فى تفسيره ولا أحكامه .

أما الجديد فى معنى الأحرف السبعة فهو أن الأحرف السبعة هى القراءات السبع المشهورة المتواترة المعلومة من الدين بالضرورة لأن الثلاثة تتمة العشرة لم يختلفوا كثيرا فى قراءتهم عن السبعة فالمدنيان نافع وأبو جعفر تكاد تندرج قراءة أحدهما فى الآخر ويعقوب الحضرمى أصله أبو عمرو البصرى ، وخلف العاشر تلميذ حمزة وراويه الأول ولم تختلف قراءته عن الكوفيين بل إنه لم يختلف عن حمزة والكسائى وشعبة إلا فى حرف واحد هو قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ .

فقولهم : أنه ليس المراد بالسبعة هؤلاء القراء المشهورين لعدم وجودهم فى ذلك الوقت يرد عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة الحج بمنى : «رب مبلغ أوعى من سامع » والحديث فى الصحيحين : البخارى ومسلم . وفى شرح البيجورى على جوهرة التوحيد للقانى عند قوله : « ومالك وسائر الأئمة » أورد شيخ الإسلام إبراهيم البيجورى حديث النبى صلى الله عليه وسلم « يوشك أن تضرب أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة » فحمل على الإمام مالك ، وورد « عالم قريش يملأ طباق الأرض

علما » فحمل على الإمام الشافعى كما ورد : « لو كان العلم بالثريا لناله رجال من فارس » حمل على أبى حنيفة وأصحابه ، وكل من هذه الأحاديث ظنى الدلالة ويدخل فيها كل عالم . قلت : وهذه الأحاديث من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم فإن من معجزاته الإخبار بالغيب ، فلا تعجب أيها القارئ الكريم أن يراد بهؤلاء السبعة هؤلاء القراء أصحاب تلك القراءات وغيرهم ممن فتح الله عليهم فى هذا الفن والله أعلم بالصواب (1) .

وقد ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن الأمة يحرم عليها إهمال شىء من السبعة . وذهب الجمهور إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة لم يترك منها حرف وهو الظاهر لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المستفيضة تدل عليه (2) .

---

(١) انظر حاشية الجزء الأول من كتابنا شرح طيبة النشر ص ١١ .

(٢) المرجع السابق الجزء الأول .

(فصل)
فى تجويد القرآن

التجويد هو إعطاء كل حرف حقه مخرجًا [وهو أن يخرج كل حرف من مخرجه] وصفةً كالرخاوة والشدة .

والتجويد فرض عين . كما قال العلامة علاء الدين الطرابلسى وذلك عند شرحه لقول ابن الجزرى :

والأخذ بالتجويد حتم لازم — من لم يجود القرآن آثم
لأنه به الإله أنزلا — وهكذا منه إلينا وصلا

ودليل فرضيته . قوله تعالى : ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ [1] وقد أكد سبحانه الأمر بالمصدر .

أما دليله من السنة فقوله صلى الله عليه وسلم : « رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه » .

وما دمت ياقارئى العزيز قد عرفت أن التجويد إعطاء الحروف حقها مخرجا وصفة فلابد لك من التعرف على مخارج الحروف وصفاتها .

قال الشمس ابن الجزرى فى مقدمته :

---

(١) المزمل : ٤ .

إذ واجب عليهم محتم قبل الشروع أولا أن يعلموا
مخارج الحروف والصفات ليلفظوا بأفصح اللغات

وهى لغة العرب العرباء التى نزل بها القرآن الكريم .

مخارج الحروف

مخارج الحروف من أهم أبواب التجويد ، فيجب أن يعتنى بإتقانها كل من أراد أن يقرأ القرآن المجيد .

والمخرج اسم لموضع خروج الحرف ، والحيز الذى يتكون فيه الصوت اللغوى ، وحروف المعجم التى تبلغ تسعة وعشرين حرفا تخرج من سبعة عشر مخرجا ، وهو المختار عند المحققين كالخليل ابن أحمد .

ومخارج الحروف تنحصر فى أربعة من أعضاء جسم الإنسان وهى : الحلق، والفم ، والشفة ، والجوف فأول المخارج جوف الحلق ، وفيه ثلاث أحرف : أولها : الألف ، وثانيها : الواو الساكنة المضموم ما قبلها والثالث : الياء الساكنة المكسور ما قبلها ، وهذه الأحرف الثلاثة تسمى حروف المد واللين والحروف الهوائية والحروف الجوفية . وزاد الخليل على هذه الأحرف الثلاثة الهمزة لأن مخرجها من الصدر وهو متصل بالجوف وثانى المخارج أقصى الحلق ويخرج منه حرفان : الهمزة والهاء وثالثها : وسط الحلق وفيه حرفان العين والحاء المهملتان أما رابع المخارج فهو أدنى الحلق إلى الفم وفيه حرفان : الغين والخاء المعجمتان . وهذه آخر مخارج الحلق .

مخــارج الفــم

وخامس المخارج التى تلى الحلق من أقصى اللسان فوق الحنك وهى القاف فقط .

أما سادسها فمن أقصى اللسان أيضا لكن من تحت مخرج القاف قليلا وما يليه من الحنك وهى الكاف فقط . وهذان الحرفان يسمى كل منهما حرف «لَهَوِىّ» نسبة إلى اللهاة وهى بين الحلق والفم .

وسابع المخارج وسط اللسان يعنى بينه وبين وسط الحنك وفيه ثلاثة أحرف : « الجيم والشين والياء » والمراد الياء غير المدية المذكورة آنفا فى الجوف .

وهذه الأحرف الثلاثة تسمى : الشجْرية وذلك لخروجها من شجر الفم وهو منفتح ما بين اللحيين وشجر الحنك المقابل لطرف اللسان .

وثامن المخارج « للضاد » وهو أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس من الجانب الأيسر عند الأكثر ومن الأيمن عند الأقل . وقيل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يخرجها من الجانبين .

وتاسع المخارج « اللام » وهى من حافة اللسان من أدناها إلى منتهاها طرفه وهى فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية وفيه اللام فقط .

أما عاشر المخارج فهو للنون ويكون من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا تحت مخرج اللام قليلا .

الحادى عشر للراء وهى من مخرج النون لكنها أدخل فى ظهر اللسان قليلا من مخرج النون .

والحروف الثلاثة : اللام والنون والراء تسمى بالحروف الذلقية نسبة إلى موضع مخرجها من ذلق اللسان أى من طرفه .

قال ابن الجزرى فى منظومته :

. . . .   واللام أدناها لمنتهاهِا

والنون من طرفه تحت اجعلوا ـ والرايدانيه لظهر أدخل

قال الفراء وقطرب والجرمى وابن كيسان وهم من أئمة النحو : الثلاثة أحرف تخرج من مخرج واحد وهو طرف اللسان .

والمخرج الثانى عشر : للطاء والدال المهملتين والتاء المثناة من طرف اللسان ومن الثنايا العليا .

وهذه الأحرف الثلاثة تسمى بالأحرف « النطعية » لأنها تخرج من نطع الغار الأعلى وهو سطحه .

أما المخرج الثالث عشر فلحروف الصفير وهى : الصاد والزاى والسين ، وتخرج الثلاثة مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا .

الرابع عشر : للظاء والذال والثاء من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا وتسمى الحروف اللثوية نسبة إلى اللثة وهى اللحم المركب فيه الأسنان .

أما المخرج الخامس عشر : للفاء من بطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا .

والسادس عشر الواو غير المدية والباء والميم مما بين الشفتين وتسمى الحروف الشفوية .

المخرج السابع عشر : الخيشوم وهو للغنة ، والغنة تقع فى النون والميم الساكنتين حالة الإخفاء أو ما فى حكمه من الإدغام .

فهذه مخارج الحروف الأصلية كلها .[1]

---

(١) انظر فى هذا كتاب شرح طيبة النشر فى القراءات العشر بتحقيق المؤلف ١ / ٢٧١ ـ ٢٨٥ ط الأزهر .

فواتح السور

كل الذين يقرأون القرآن يعرفون أن ربع سوره أو يزيد مفتتحة ببعض الحروف الهجائية بأسمائها مقطعة مسرودة ليس بين بعضها وبعض ولا بينها وبين الكلام الذى يليها ذلك الرباط المعهود بين أجزاء الجمل العربية .

ونريد فى هذا المبحث أن نذكر عن هذه الفواتح كلمتين موجزتين نشير فى إحداهما إلى طريقة رسمها وتلاوتها ، ونبرز فى الأخرى وجوه النظر المختلفة فى المعنى المقصود منها .

أولا : فيما يتعلق بالرسم والتلاوة

السنة المتبعة فى رسم هذه الفواتح أن كل حرف منها يرسم حرفا واحدًا مع أن السنة المتبعة فى تلاوتها أن كل حرف منها ينطق ثلاثة أحرف هكذا فحرف «أ» ينطق « ألف » ، وحرف « ل » ينطق « لام » وحرف « ع » ينطق « عين » وهلم جرا ، ويستثنى من ذلك الحروف التى آخرها الهمزة كالحاء والراء والهاء والياء فإنها تنطق حرفين اثنين إذ يوقف فيها على الألف اللينة لا على الهمزة فهى مقصورة لا ممدودة هكذا

ر = را ، ى = يا

ولا تحسبن أيها القارئ الكريم أن هذه السنة التى بيناها فى اختلاف الرسم والتلاوة خارجة عن قانون القراءة والكتابة القياسيتين . كلا ؛ فتلك هى سنة حروف المعجم إذا جىء بها مقطعة غير داخلة فى تقويم كلمة معينة ألا ترى أنك إذا قلت للكاتب : اكتب « جيما » مثلا كتب « ج » فيصورها بذاتها ومسماها وصورتها الشارحة حينما تكون بعضا من كلمة ، ولكنك إذا سألته بعد ذلك . ماذا كتبت ؟ قال : « جيم » فينطق باسمها المركب المستقل .

فعلى هذه القاعدة جرى الأمر فى رسم هذه الفواتح وتلاوتها فترسم كما رأيت حروفا وتنطق كما سمعت كلمات مستقلة وتسكن أواخرها بسكون الوقف ؛ لأنها لم تدخل عليها العوامل التركيبية التى توجب إعرابا خاصا بل جىء بها فرادى مسرودة بيد أنها مع سكونها توصل فى النطق عند الجمهور ، ويراعى فيها ما يراعى فى سائر الكلمات المتصلة من المد والإدغام ونحوهما فى مواضعها المعروفة . وروى أبو حيان عن ابن القعقاع أنه كان يقطعها حرفا حرفا ، بوقفة وقفة .

ثانيا : المعـــنى

لم يختلف أحد من المفسرين ، القدامى منهم والمحدثين فى أن كل واحد من هذه الأسامى موضوع بإزاء حرف التهجى المنطوق به فى ابتداء ذلك الاسم ؛ فكان مثلا اسم « كاف » لحرف « كاف » و « لام » اسم لحرف « ل » وميم اسم لحرف « م » وهلم جرا [1].

---

(١) من المعروف أن الحروف الهجائية وعدتها تسعة وعشرون حرفا وضعت لها أسماء كل اسم منها يبدأ بالحرف نفسه ويستثنى من ذلك الألف اللينة أى المدة التى بعد الفتحة فإنها لما لم يمكن الابتداء بها نفسها وعمها الواضع بحرف قبلها ليمكن النطق بها واختار أن يكون هذا الحرف هو اللام فقال : « لا » بوزن « ما » وهى التى يسميها معلموا الأطفال « لام ألف » وبعضهم لا يزيد حرف الألف اللينة اكتفاء بالألف فتكون الحروف الهجائية ثمانية وعشرون حرفا . أ هـ

نقول هذا القدر لا خلاف فيه . أما الاختلاف الكثير المسطور فى كتب التفسير نقلا عن تراجمة القرآن من الصحابة والتابعين وعن علماء العربية من المتقدمين والمتأخرين فليس اختلافا فى المعنى الوضعى ، وإنما هو اختلاف فى المقصود منها فى مستهل السور : أهو ذلك المعنى الوضعى نفسه ؟ أم أنها نقلت فوضعت بإزاء معنى جديد نعرفه ونزعم أنه هو مراد الله تعالى منها ؟ وإذا لم يكن لها معنى جديد معروف وراء ذلك المعنى الأصلى فهل لافتتاح السور بهذا التهجى حكمة معقولة لنا أم هو وضع تعبدى لا نعرف حكمته ، وسر إلهى لا ندرك خبيئته ، هكذا يمكن رد الأقوال المتشعبة فى هذه المسألة والتى تبلغ عشرين قولا أو يزيد إلى ثلاثة أقوال رئيسية لا زائد عليها ، وها هى ذى ننشرها لك على عكس طيها .

القــول الأول

وهو مذهب الشعبى والثورى وجماعة من المحدثين وهو مروى عن الخلفاء الأربعة الراشدين وابن عباس رضى الله عنهم أننا لا نعرف من أمر هذه الفواتح إلا ما يعرفه كل أحد من أنها أسام هجائية لحروف المبانى ، وأن الله تعالى أمرنا عند تلاوة بعض السور أن ننطق فى افتتاحها بتلك الأسماء لحكمة يعلمها هو فما علينا إلا السمع والطاعة لأمره ؛ لأن له أن يتعبدنا بما يشاء مما نعقل مصلحته وما لا نعقل ، كما أمرنا فى الحج والصلاة والكفارات بأعداد خاصة وأوضاع معينة لا ندرك الحكمة فى تحديدها ؛ وكما أمر إبراهيم الخليل عليه السلام بذبح ولده ، وأوحى إلى أم موسى بإلقاء ابنها فى اليم . ولاشك أن من تمام الاختبار بصدق الإيمان تكليف المؤمن بما لا يعرف وجه المصلحة فيه ، بل الطاعة فى الأمور المجهولة الحكمة ؛ أقرب إلى تحقيق العبودية والإخلاص منها فى الأمور المعقولة المعنى .

ولا يقال إن هذا خطاب بما لا يفهم ، وأنه عبث يجب تنزيه القرآن عنه ؛

لأنا نقول : إن محصول الكلام أن الله تعالى يقول لنا : قولوا : كاف ؛ قولوا : لام ؛ قولوا : ميم . وهذا مفهوم تمام الفهم ، ولا ينقصنا إلا أن نعرف : لماذا نقول ؟ وهذا سؤال لا يوجه إلى الحكيم متى صدق الإيمان بحكمته ، فإن كانت هذه الأسماء ليس لها فى الواقع مدلولات وراء هذه المعانى الهجائية ، فالأمر واضح كما قررنا ، وإن كانت فى جملتها ، أو فى آحادها رموز فى الواقع لمعان يعلمها الله تعالى فهذا لا يضيرنا ؛ لأننا لم نخاطب بها من جهة المعانى الرمزية لا مطالبة بفهمها ولا بامتثال مضمونها الغيبى ، وإنما خوطبنا بها من الوجهة اللفظية وهى التعبد بتلاوتها ، والذى يدلنا على أننا لم نخاطب بها من الوجهة الرمزية أن لو كانت كذلك لوجب على الرسول صلى الله عليه وسلم بيان مدلولات تلك الرموز لأنه لا يمكن معرفتها إلا من طريق الوحى والتلقى عن واضع تلك الرموز سبحانه . ألا وإنه لو بينها الرسول صلى الله عليه وسلم لنقل عنه هذا البيان ، لكنه لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم فى بيانها شىء ، ولا نقل عن أحد من الصحابة سؤاله عنها ، وإذ لم يبينها الله لنا على لسان رسوله ولم تكن هى بينة فى نفسها فقد أصبح الخطاب بها لو وقع شبيها بالتكلم بالرطانات مع من لا يعرفها ، أو بالأحاجى والمعميات مع من لا سبيل له إلا فهمها . وهذا وذاك إنما هو ضرب من العبث أو الجهل . أو من تكليف ما ليس فى الوسع والله أعلى وأجل من أن يعبث أو يجهل ، وهو أرحم بعباده من أن يكلفهم ما لا طاقة لهم به . وإذا ثبت أنه لم يتعلق بنا فى شأن هذه المعانى الرمزية تكليف مباشر ، علمى أو عملى ، ولم يكن فهم الجمل المتصلة بتلك الفواتح متوقفا على فهم المعانى المذكورة حتى يكون فهمها من قبيل مقدمة الواجب صار البحث عنه إذًا من التكليف الذى قال فى مثله عمر رضى الله عنه « نهينا عن التكلف » حين سئل عن معنى « الأبّ » فى قوله تعالى : ﴿وفاكهة وأبا﴾ [1] بل التكليف فى مسألتنا أبين ؛ لأن « الأبّ » كلمة داخلة

---

(١) سورة عبس : ٣١ .

فى الجملة معطوفة بالواو مؤلفة مع غيرها تأليف الكلام العربى بخلاف هذه الفواتح ونزيد هذا المعنى وضوحا فنقول :

كما لا يعنى مشترى السلعة أن يعرف مدلول تلك الأرقام الاصطلاحية التى تكتب على حاشيتها ، وإنما يعنى أن يعرف مغزى المقال أو مضمون الخبر أو جودة السلعة ، فكذلك لا يعنى قارئ السورة أن يعرف المشار إليه بتلك الرموز على وجه التحديد متى وقف على مقاصد الآى ومعانى الجمل ، وسواء علينا بعد ذلك أن كان هذا السر محجوبا عن النبى صلى الله عليه وسلم أيضا كما حجب عنا أم كان مكشوفا له دوننا ، فإنه لا يلزم من علمه عليه السلام بالشىء الذى لم نكلف به علمنا به ، إذ هو أعلمنا بالله وآياته . وما منا إلا له مقام معلوم ، وقديما قيل : « إن السر بين الحبيب والحبيب لا يلزم أن يطلع عليه الرقيب » .

القــول الثــانى

وهو مذهب كثير من علماء العربية أن تلك الأسماء وإن لم تنقل عن أوضاعها الأولى ولا تزال دالة على معانيها الهجائية إلا أن فى افتتاح السور بها حكما معقولة يظفر بها من يلتمسها بتدبر ، من ذلك ما أشار إليه الأخفش وأبو عبيدة من أن الله تعالى كما افتتح بعض السور من كتابه بذكر : والشمس ، والضحى ، والفجر ، والليل ، والنجم ، والطور ، والتين والزيتون وغيرها من النعم الكونية ليكون ذلك جاذبا لبصائر الناس إلى الإيمان بواهبها ، والخضوع لأمره والقيام بحقوقه ، والاستعداد للقائه ، وليكون ذلك إيماء إلى ما بين القرآن وبين هذه النعم الجسام من تمام الشبه بينهما فى خصائص الصفة الإلهية ، كذلك افتتح الله بعض السور بذكر الحروف التى هى أصول النطق والكلام تذكيرا بتلك النعم الجليلة التى خص الله بها الإنسان من بين سائر الحيوان ، ألا وهى نعمة العلم والبيان . بل التذكير بهذه النعم أمس بالمقام ؛ لأنها واقعة

بين يدى القرآن الذى هو أحسن أنواع التعليم والبيان ، وكما ذكرت النعم الكونية على وجه القسم بها تنويها بجليل شأنها ، كذلك هذه النعمة البيانية، غير أن القسم بها مطوى ، حذفت أداته على طريقة قولهم : « الله لأفعلن كذا » وهو حذف سائغ فى لفظ الجلالة باتفاق ، وفى غيره عند علماء الكوفة ، ومن ذلك ما قاله المُبَرِّد وجم غفير وهو أن فى تقطيع هذه الحروف بين يدى الكلام المتحدى به إلهابا لنفوس العرب ، وإثارة لحمية المعارضة فيهم إذ كانت هذه الحروف الهجائية هى مواد الكلمات العربية ، والكلمات العربية هى مواد الكلام العربى الذى يتسابقون به فى حلبة المفاخرة ، فكأنه قيل لهم : لو أننا جئناكم بقرآن أعجمى وبكلام مؤلف من حروف غير الحروف التى تتألف منها لغتكم لقام لكم العذر فى عدم الإتيان بمثله ، أما وهو مؤلف من حروفكم مصوغ من المادة التى تصوغون منها كلامكم ، فلا يعقل سبب عادى لعجزكم ولولا أنه فوق طاقتكم ما تساقطت دونه أقداركم ، على أنه لم يكتف بهذا القدر فى التبكيت ، بل زاده تشنيعا وتهويلا إذ جاءهم عند سرد هذه الأحرف بجميع الوجوه التى تجىء عليها أصول كلماتهم العربية ، فجعل منها ما هو على حرف واحد مثل : « قٓ » ، « نٓ » وما هو على حرفين مثل : « حمٓ » و « طسٓ » وعلى ثلاثة نحو : « الٓمٓ » ، و « طسٓمٓ » وعلى أربعة « المٓر » و « المٓصٓ » وعلى خمسة : « كٓهيعصٓ » ، « حمٓعسٓقٓ » وهذه هى نهاية أبنيتهم الأصلية كأنه قيل لهم : لسنا نلزمكم ضربا معينا من ضروب الكلمات العربية فدونكم المفرد والمركب والطويل والقصير والخفيف والثقيل . إننا نتحداكم أن تأتوا منها بأى وجه شئتم فهاتوا ما استطعتم ولكنكم لن تستطيعوا ولو حرصتم .

ومن ذلك أن مجرد نطق النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الأسماء الهجائية فيه مسحة من الإعجاز يدركها السامع من أول الأمر قبل أن يقف على أسلوب القرآن ودرجته فى الفصاحة والبلاغة ، وذلك أن العرب وأهل كل لغة يستوى

أميهم ومتعلمهم فى النطق بجواهر الحروف والكلمات الدالة على معانيها ، وأما التهجى وهو تحليل الكلمات إلى أجزائها وتسمية كل حرف باسمه الاصطلاحى المدرسى فلا يعرفه منهم إلا القارئ الكاتبفهذا النبى الأمى لما سمى الحروف بأسمائها وهو لم يقـرأ ولم يكتب ، ولم يجلـس مجلس المتعلم من قارئ أو كاتب ، كان ذلك منـه خارقا من خـوارق العادات وآية من آيات الله البينات .

على أن الأمر لم يقف عند نطقه بأسماء بعض الحروف بل هناك ما هو أعجب ، فإننا نظرنا فى عدد السور التى صدرت بهذه الحروف فإذا هى تسعة وعشرون سورة وذلك هو عدد حروف المعجم ثم نظرنا فى أعيان هذه الحروف بعد حذف المكرر فإذا هى أربعة عشر حرفا وهو نصفها بإلغاء الكسر ثم نظرنا فى طبيعة تلك الحروف فإذا هى قد اشتملت على جميع الأجناس الصوتية من مهموس ، ومجهور ، وشديد ، ورخو ، ومطبق ، ومنفتح ، ومستعل ومستفل إلى غير ذلك من حروف القلقة وحروف الإدغام وحروف الحلق ، وحرفى اللين، وحروف الزيادة وحروف البدل ، وسائر الأنواع التى لا يعرفها إلا العالم بمخارج الحروف وصفاتها فذكر من كل نوع منها نصفه أو أكثر وهذا العلم لم يُعرف إلا فى القرن الثانى بل قال بعض العلماء : الإحصاء أن أكثر ألفاظ القرآن يدور على الحروف الواردة فى فواتح السور ، ولا يخفى أن هذا كله لا يجىء عن طريق المصادفة البحتة ، وإنما يكون عن قصد وعلم وإذ لا علم إلا بالتعلم ، ولا معلم له من البشر فهو إذًا تعليم اللطيف الخبير الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، أضف إلى هذا المعنى » وهو الإشارة بالهجاء القرآنى إلى أن هذ العلم معجزة للنبى الأمى ، وإشارة ثانية إلى ما سيكون للقرآن الكريم من فضل على الأميين جميعا بنقلهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم الذى أول خطواته وأيسر مفاتيحه فى العادة الجارية هو محو الأمية بتعلم القراءة والكتابة التى يعد هذا الأسلوب نموذجا من مبادئها .

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾[1]. . . الآية

وإشارة ثالثة إلى ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن عند تلاوة القرآن من الخضوع والتواضع ، والتنزل منه منزلة الصبى من معلمه ومؤدبه بحيث يقف عند أوامره وزواجره موقف السمع والطاعة فلا يتقدم برأيه وهواه فى دين الله . ﴿ إن الحكم إلا الله ﴾[2].

ومن ذلك ما روى عن قطرب ، أن الاستفتاح بهذا الهجاء لما اشتمل على ضرب من الغرابة والمخالفة لمألوف العرب فى محاوراتهم ، وكان فيه من قوة التنبيه واسترعاء الأسماع ثمرة مزدوجة ، فهو قبل كل شىء إسكات المستهزئين الذين كانوا يقولون : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ وهو بعد ذلك توجيه لعنايتهم إلى الشأن المهم الذى يليه ، ولذلك لا تجد فى إثر هذه الفواتح إلا شأنا جليلا يراد التنبيه عليه فى أول السورة . وكان أشبه بأداة التنبيه والاستفتاح فى العربية . وقريب من هذا الوجه ما ذهب إليه بعض المستشرقين من الفرنجة وهو أن ذكر هذه الحروف الساذجة فى أوائل السور إنما هو توطئة لتلاوة السور ببيان وجهة اللحن الذى سيكون عليه إيقاع نغمها ، ولعل هذا الرأى قد سرى إليهم من وقوع القرائن والفواصل فى بعض السور على وفق الرّوى الذى يجىء فى نهاية هذه الحروف الفواتح مثل « الـمّ » . . . . هدى للمتقين » « ن » . . . وما يسطرون ، « ص » . . . . . فى عزة وشقاق » ولكن هذا لا يستقيم لهم فى مثل « ق » والقرآن المجيد . « الر » . . . الكتاب المبين «المص » . . . وذكرى للمؤمنين . وهو بعد فرض استقامته إنما يكون من المقاصد التبعية لا الأصلية كما تقرر فى الوجه الذى قبله .

---

(١) الجمعة : ٢ .

(٢) يوسف : ٤٠ .

القــول الثـالث

وهو مذهب الصوفية ، ويروى عن بعض السلف ، وبذكر شيء منه عن علماء بنى إسرائيل ، أن هذه الحروف قد نقلت عن معانيها الأصلية إلى معان اصطلاحية جديدة وضعت لها ، إما بجملتها وإما بآحادها قالوا : وإنما سكت النبى صلى الله عليه وسلم عن بيان تلك المعانى تيسيرًا وتوسعة على الناس بجعلها مجالا لاجتهاد المجتهدين ، وذلك إما بناء على أن هذه الفواتح ليست من المتشابه أصلا ، وإما بناء على أن المتشابه مما يعلمه الراسخون فى العلم .

وقد اختلف أصحاب هذا القول على آراء كثيرة يمكن ضبطها فى أربع شعب :

الشعبة الأولى : تزعم أن كل فاتحة على حدتها تدل بجملتها على معنى مفرد ، وذلك أنها جعلت اسما علما . إما على السورة التى هى فيها كما روى عن زيد بن أسلم ونقل [1] عن الخليل وسيبويه ونسب إلى جمهور المفسرين ، وإما على القرآن كله . كما روى عن السدى وقتادة ، وإما على الله تعالى كما روى عن ابن عباس بسند صحيح .

وروى عن على [2] أنه كان يقول : « ياكهيعص : ياحمعيسق اغفر لى » قالوا : ولا حرج فى اللغة على واضع الأعلام ، فإن لكل أحد أن يسمى ما شاء

---

(١) تأويل بعضهم هذا النقل قائلاً : إن معناه أنه لما غلب استعملها فى قول القائل : قرأت حم الدخان وقرأت الم البقرة صارت كالأعلام بالغلبة على سورها وهذا كما تقول : قرأت بانت سعاد وقرأت قل هو الله أحد أى قرأت القصيدة أو السورة التى أولها ذلك لأنها صارت أعلاما بالنقل والوضع الجديد أ هـ .

(٢) تأويل البيضاوى هذا النقل فقال : لعله أراد : يامنزلها أو ياعالم معناهما مثلا ؛ لأنه لا يظهر للتسمية بها معنى مناسب فى العربية بخلاف سائر الأسماء الحسنى .

بما شاء، ولو أن يسمى ببيت من الشعر ومن هنا قيل : إن الأعلام لا تختص بلغة .

الشعبة الثانية : تزعم أن كل فاتحة منها تدل فى جملتها بحساب أعداد حروفها وفقا لقاعدة الجمل على وقائع معينة فى المستقبل كما قيل فى ﴿ الم * غلبت الروم ﴾ وكما قيل فى « حمعيسق » انظر الألوسى والطبرى فى تفسير السورتين .

الشعبة الثالثة : تزعم أن كل حرف منها له دلالة مستقلة إما بالاقتطاع والنحت من أسمائه تعالى أو صفاته أو أفعاله أو نحو ذلك كما روى عن[1] ابن عباس أنه قال : الألف من الله واللام من لطيف والميم من مجيد والكاف من كبير ، وروى عنه أنه قال فى « ألم » أنا الله أعلم . وفى « الر » أنا الله أرى وروى عنه أيضا أن الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد والمعنى أن الله أنزل جبريل على محمد وإما بالدلالات الإشارية كما قيل فى « الم» إن كل حرف منها رمز إلى حال من أحوال العبد فى صلاته أو فى سلوكه فالألف للقيام واللام للركوع والميم للسجود أو الألف للشريعة واللام للطريقة والميم للحقيقة .

الشعبة الرابعة : تزعم أن الدَّالّ هو مجموعة تؤخذ من الحروف المتفرقة فى السور كلا أو بعضا كما روى عن ابن عباس أنه قال : إن « الر » و«حم » و«ن» مجموعها هو اسم الرحمن ، وروى عنه أيضا أن المقطعات كلها يتألف منها اسم الله الأعظم وكذلك قال سعيد بن جبير إنها أسماء الله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها تعلموا منها اسم الله الأعظم . وذهب أبو العالية إلى أن مجموع

---

(١) قال البيضاوى : إن ابن عباس لم يرد بذلك كله تفسير المراد ، وإنما أراد التنبيه على أن هذه الحروف هى مواد الأسماء ومبادئ اللغات ـ وإن ما ذكر منها ـ إنما كان تمثيلاً بأمثلة حسنة لا بقصد التحديد بدليل اختلاف الحروف التى عدها .

الحروف المسرودة فى أوائل السور إذا أحصيت بحساب الجُمّل دلت على مقدار عمر الأمة الإسلامية استنادًا إلى حديث رواه البخارى فى تاريخه بسند ضعيف أن بعض علماء اليهود فهم ذلك بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه الرسول بل ضحك منه ، وإن كان ضحكه يحتمل الاستحسان لفهمه أو التعجب من جهله . ولا أطيل على القارئ بسرد تفاصيل الآراء . فكأنى به قد فطن من مجرى الحديث إلى أن أقرب الأقوال إلى السلامة وأبعدها من الزلل هو الوقوف عند القول الأول فإن تجاوزه إلى القول الثانى فأمثل المقاصد فيه هى الثلاثة الأول فإن حاول أن يأخذ شيئًا من القول الثالث فحسبه منه الشعبة الأولى ولاسيما فرعها الأول . أما ما وراء ذلك من آراء فلا نرى عليها مسحة الفن بل نرى فيها أثر التخمين والظن ولا ينبغى للمؤمن أن يقول فى شىء منها على التعيين أنه هو مراد الله تعالى بالظن الراجح ، بله اليقين ، إذ ليس لها فى لغة العرب شاهد قوى يؤيدها وليس لها فى سياق القرآن قرينة تسندها .

ولا يقولن قائل : إن هذه الأقوال كلها مروية عن السلف فقد روى عنهم أيضا السكوت والوقف على أنه ليس كل ما روى عن السلف صحيح السند قطعى الدلالة ، وإذا ثبت الاختلاف فى المسألة عنهم بل عن كل منهم فقد أصبحت مسألة اجتهادية ، ووجب على الناظر فى أقوالهم أن يتخير منها أقواها مدركا وأقربها إلى ذوق العربية والله أعلم ولا علم إلا ما علم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (*) .

(*) هذا البحث لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دراز تنفيذًا لقرار جماعة كبار العلماء فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥١ أهدى إلىّ من الدكتور محمد محمود فرغلى عميد كلية الشريعة والقانون بالأزهر . رحمه الله وغفر له .

أسباب نزول القرآن

من الأبحاث الممتعة مبحث معرفة أسباب النزول ؛ لأن الباحث ينقب عن الأسرار الكامنة وراء كل آية أو كل سورة ، فينقل القارئ إلى تلك الأجواء النفسية ، والبيئة التاريخية التى نزلت بسببها الآية أو الآيات .

وقد نزل القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم فى نيف وعشرين سنة ، يرد على أسئلة السائلين ويجيب استفتاء المستفتين ، فإن المجتمع الإسلامى الجديد يحدث من الأمور فيُحدث له من الأحكام ما يكون سببا فى نزول الوحى بالآية أو الآيات التى تعرض للأحداث وتضع العلاج الشافى مما يكون سببا فى إزالة الحيرة ، وسلوك الطريق الأقوم فى ظل ذلك المنهج الأمثل الذى تسبب فى سعادة الأفراد والجماعات فى الدنيا والآخرة . . وليس لكل آية من الآيات سبب خاص بنزولها ، فإن من القرآن ما نزل بشرح الدعوة والإرشاد إلى هداية البشر وتنظيم حياتهم و إصلاح شئونهم ، وأغلب هذا النوع يشتمل على آيات العقائد والأحداث السابقة فى العصور الغابرة وقصص الأنبياء ومشاهد القيامة . كما أن من الآيات القرآنية ما نزل لأسباب تتعلق بأحكام العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والغزو والجهاد والحقوق والواجبات والمعاهدات الداخلية والخارجية . . ومعرفتنا لهذه الأسباب تعين كثيراً على فهم تلك الآيات التى نزلت فيها ، وقد لقى هذا النوع من سلف الأمة وخلفها عناية خاصة مما أفرد له

بالتأليف جماعة سخرهم الله لحفظ أسباب نزول آياته كما حفظ كتابه ، ومن هؤلاء على بن المدينى شيخ البخارى والواحدى والجعبرى وابن حجر والسيوطى وغيرهم .

والمراد بسبب النزول كما يقول صاحب مناهل العرفان هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه ، كما أنها تساعد على حفظ القرآن وتيسير فهمه وتثبيت الوحى فى ذهن السامعين ، إذ فى ذلك ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالمناسبات ، والحوادث بالأشخاص والزمان والمكان ، فيسهل على المؤمن تذكرها وروايتها ، ولذلك فإن الطريق الأمثل لمعرفة أسباب النزول هو النقل عن الصحابة رضوان الله عليهم الذين عاصروا الوحى والنزول ، ووقفوا على الظروف والملابسات والأحوال التى ألمت بنزول الآيات ، فقد سمعوا بآذانهم ودعوا بقلوبهم ونطقوا بألسنتهم فعنهم يؤخذ هذا العلم وإلى هذا أشار الواحدى بقوله : « ولا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا فى الطلاب »[١].

كما يقول : « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » ويقول ابن دقيق العيد :

« معرفة أسباب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن وعلى هذا فقول الصحابى الذى شهد التنزيل فى سبب النزول يوضع فى الدرجة الأولى من القبول ؛ لأن قوله يعد حديثا مسندا له حكم المرفوع .قاله ابن الصلاح والحاكم وغيرهما فى علوم الحديث[٢].

---

(١) أسباب النزول للواحدى : ٤ .

(٢) الاتقان للسيوطى ١ / ٥٢ .

أما ما رواه التابعى من أسباب النزول مما لم يذكر فيه اسم الصحابى فهو حديث مرسل ، والمراسيل كلها ضعيفة باستثناء بعضها ، فلا يقبل قوله إلا إذا عضده مرسل آخر ، رواه أحد أئمة التابعين الذين ثبت أخذهم عن الصحابة كعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصرى ، وتظاهر الأحاديث الضعيفة على قول واحد يقوى بعضها بعضا ، فيصير الضعيف حسنا والحسن صحيحا . . . إلخ

ولا مجال للرأى أو الاجتهاد فى أسباب النزول ، ومن أقطاب هذا العلم من الصحابة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

روى البخارى فى صحيحه عنه قال : « والله الذى لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه» .

ومن فوائد الإلمام بأسباب النزول الاستعانة على فهم الآية وإزالة اللبس والإشكال فى فهمها ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ واللائى يئسن من المحيض . . . الآية ﴾[1] .

أشكل فى هذه الآية معنى الشرط فى قوله تعالى : (إن ارتبتم) على بعض الأمة حتى قال الظاهرية : إن الآيسة من المحيض لكبر أو صغر لا عدة عليها إذا لم ترتب (أى تشك) فأزال هذا الإشكال سبب نزول الآية . وإليك البيان :

لما نزلت الآية التى فى سورة البقرة فى عدة النساء ، قالوا قد بقى عدد من عدد النساء لم يذكرن ، الصغار والكبار ، فنزلت الآية التى بين يديك أيها القارئ الكريم .

---

(١) الطلاق : ٤ .

فالآية خطاب لمن لم يعلم حكم الصغار والكبار فقوله (إن ارتبتم) أى إن جهلتم حكمهن فى العدة فعدتهن ثلاثة أشهر . هذا فى اللائى يئسن ثم قال سبحانه : واللائى لم يحضن . . هذا مبتدأ خبره محذوف تقديره حكمهن كذلك أى عدتهن ثلاثة أشهر . . فعلم من ذلك أن المراد بالشرط الارتياب فى الحكم لا فى اليأس . قاله ابن حجر[١].

كما أن من فوائد أسباب النزول الإعانة على فهم الحكمة التى يتضمنها التشريع ، وفى ذلك الخير كل الخير للمؤمن وغيره .

أما المؤمن فيزداد إيمانا ، وأما غير المؤمن فيسوقه ذلك إلى الإيمان بالله تعالى ، كظهور الحكمة فى تحريم الخمر بعد معرفة سبب التحريم ، وهو الوقوع فى العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وذهاب العقل والوقار وضياع المال والصحة فيما لا فائدة ترجى منه .

كما أن من فوائد أسباب النزول أيضا تخصيص الحكم بالسبب عند من يرون أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، فآيات الظهار نزلت بسبب ظهار أوس بن الصامت لما ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة ، واستبان الحكم فى هذه الآيات الكريمة من سورة المجادلة ، وبناء عليه فإن الحكم المستفاد لا يتعدى تلك الحادثة ، وحكم الظهار فى غيرها يمكن معرفته بدليل آخر قد يكون قياسا أو غيره . ومن المسلم أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم أو القياس عليه إلا إذا علم سبب نزول السبب وبدون العلم به تصير الآية معطلة .

وهنا وقفة أمام قاعدة العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، الحق الذى لا مراء فيه أن ارتباط الآيات بسبب النزول لا يجعله قيدا لها وحاجزًا

---

(١) فتح البارى : ١١ / ٣٩٥ .

عليها، فسبب النزول وإن كان مفتاح الفهم ، إلا أنه يفتح الباب على مصراعيه لتناول الآى المرتبطة بسبب النزول ، وكل ما يشبه هذا السبب فهو فى الحقيقة مثال مضروب لتثبيت قاعدة معينة ، وبناء عليه يكون أصح الأقوال : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبهذا قال المحققون من العلماء ، فإن كانت بعض الآيات قد نزلت فى ظروف خاصة ، خصوصا إذا كانت متعلقة بذكر أشخاص مثلا ، كآية الظهار وآية اللعان وآية الكلالة وحادثة الإفك ، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فإن هذا لا يقول به مسلم ولا عاقل على الإطلاق .

قال السيوطى : اختلف أهل الأصول . هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ؟ والأصح عندنا الأول .

ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ ، احتجاج الصحابة رضوان الله عليهم فى وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة ، وكون ذلك شائعا بينهم ، قول محمد بن كعب القرظى فيما يرويه عنه سعيد المقبرى : إن الآية تنزل فى الرجل ثم تكون عامة بعد . . تأمل معى أيها القارئ الكريم سورة المنافقين . . تلك السورة التى تتضمن حملة عنيفة على أخلاقهم وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم وما فى نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب .

إن السورة ترسم صورة فريدة مبدعة ؛ تثير الهزء والسخرية من هذا الصنف المطموس الممسوخ ، وتصفهم بالفراغ والخواء ، بل تنصبهم تمثالا وهدفا فى معرض الوجود (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

فهى أجسام تثير الإعجاب ، لا أشخاص تتجاوب . وما داموا صامتين ،

فهم دُمىً تبهر الناظر لكنها إذا تكلمت فهى كالجبل يتمخض فيلد فأرا . . نطقهم خاو من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة تختلج بها صدورهم تسمع لقولهم كأنهم خشب ، ولكنها ليست خشبا فقط بل خشب مسندة لا حركة لها ، يسندها جدار ، جدار مائل سرعان ما يهوى بها فى مكان سحيق . . يحسبون كل صيحة عليهم ، لأن ستارهم الرقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء بجعلهم فى ارتياب دائم ، يخشون بين لحظة وأخرى أن يكون أمرهم قد افتضح وأن سترهم قد انكشف . . والتصوير القرآنى المبدع يرسمهم متلفتين حواليهم فى عيون زائفة . . ونظرات تائهة يتوجسون خيفة من كل حركة . . ومن كل صوت . . ومن كل هاتف . . يحسبون الطارق طالبا لهم بعد أن عرفت حقيقة أمرهم . . إن هؤلاء المندسين فى صفوف المسلمين يعيشون فى حياة الرسول قرابة عشر سنوات يعيثون فى الأرض فسادا . . قد لا يعرفون بأسمائهم . . ولكن بلحق أقوالهم والتوائهم . . تعرفهم بسيماهم . . وجوه تعلوها ظلمة كفر قد أبطنوه . . وظلم قد مارسوه . . وفسق قد عايشوه . . إن هذه السورة بصورها المتعددة وإن كانت قد نزلت فى منافقى الأوس والخزرج إلا أن صلاحية القرآن لكل زمان ومكان جعلت هذه السورة عامة شاملة ، ونموذجا خالصا خالدا شاخصا لمن مضى ولمن يجىء من هذا الصنف إلى قيام الساعة . . وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تركهم تفضحهم سلوكياتهم . . إلا أنه كان يعرفهم ويخص بعض أصحابه كحذيفة ابن اليمان وغيره بمعرفة أسمائهم . . إلا أننا فى مجتمعنا هذا وبعد انقطاع الوحى يجب أن نفتش عنهم ونفضحهم ونكشف ألاعيبهم التى يمارسونها ضد الدعوة الإسلامية ونطهر صفوفنا منهم . . وذلك نوع من الجهاد الواجب على كل مسلم بعينه . . حتى نعيد للإسلام جداره المشروخ بعد نقض هذا البناء الشامخ حجرا حجرا . . ونذهب إلى رسول الله يوم القيامة ليباهى بنا الأمم . . لا أن نسود وجهه ونلطخ سمعته بالتقاعس عن حمل الراية الإسلامية بعد

وقوعها على الأرض بأيدى أهلها وأعدائها متعاونين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومن أمثلة ذلك آية الظهار التى نزلت فى خولة بنت ثعلبة ـ وأوس بن الصامت وعمت بعد ذلك ، وكآيات تحريم الخمر .

تعـدد الأسـباب والنــزل واحــد

قد ترد روايات متعددة فى أسباب نزول الآية وتذكر كل رواية سببا صريحا غير ما تذكره الأخرى .

ويرى المحققون أن المقاييس الدقيقة فى ترك هذه والأخذ بتلك ما يلى :

إذا كانت إحدى الروايتين صحيحة والأخرى غير صحيحة اعتمدنا على الأولى ورددنا الثانية .

ومثال ذلك ما ورد فى الصحيح أن سبب نزول سورة والضحى هو تأخر الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم حتى أرجف المرجفون بقولهم : ودع محمدًا ربُّه وقلاه فنزلت السورة . . كما ورد أن سبب نزولها تأخر الوحى لوجود جرو تحت سرير النبى فمات فمكث النبى صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى .

والمعول على ذلك فى بيان السبب الرواية الأولى لصحتها أما الثانية فقد ردت لأن فى إسنادها من لا يعرف [1] فإذا صحت الروايتان وكان لإحداهما مرجح اعتمدنا فى بيان السبب على الراجحة دون المرجوحة . ومن أسباب الترجيح أن إحدى الروايتين أصح من الأخرى أو أن الراوى كان حاضرًا

---

(١) انظر الإتقان : ١ / ٣٢ ، ومناهل العرفان : ١ / ١١٧ .

للواقعة أو غير ذلك من أسباب الترجيح ومثال ذلك ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال : كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم : لو سألتموه عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحى ثم قال : ﴿ قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [1].

وما أخرجه الترمذى وصحيحه عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئًا نسأل هذا الرجل فقالوا : سلوه عن الروح فسألوه فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح . . . الآية ﴾ . .

الخبر الثانى يدل على أن القصة نزلت بمكة وسبب نزولها سؤال قريش ، أما الخبر الأول فصريح بأنها نزلت بالمدينة وسبب النزول سؤال اليهود فالخبر الأول يفوق الثانى بمرجحين :

أحدهما أنه رواية البخارى لأن الثانى رواية الترمذى والمرجح الثانى أن الراوى وهو ابن مسعود كان حاضرًا الواقعة .

إذا تساوت الروايتان فى الصحة ولا مرجح لإحداهما على الأخرى وأمكن الأخذ بهما معا لتقارب الزمنين أخذنا بهما وحكمنا بنزول الآية عقب حصول السببين كليهما .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم . . . الآية ﴾ [2].

سبب نزول الآيات قذف هلال بن أمية امرأته بين يدى النبى صلى الله عليه

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

(٢) النور : ٦ .

وسلم . . ثم تساؤل صحابى آخر يقال له عويمر فنزلت الآيات جوابا على سؤال الاثنين فالأولى رواية البخارى والثانية رواية مسلم وقد أخرج الشيخان الروايتين . . سهل بن سعد الساعدى .

فالروايتان صحيحتان وقد بينت إحداهما أن سبب النزول هو هلال بن أمية وبينت الأخرى أنه عويمر ولا مرجح لإحدى الروايتين على الأخرى فلا يجوز الأخذ بواحدة منهما بل يجب الجمع بينهما . . أما طريق الجمع فلأن السائل الأول هلال والثانى عويمر فنزلت الإجابة للاثنين معا . . وإلى هذا جنح النووى فى شرحه على صحيح مسلم بقوله :

ويحتمل أنها نزلت فيهما جميعا فلعلهما سألا فى وقتين متقاربين فنزلت الآية فيهما .

ـ استواء الروايتين فى الصحة ولا مرجح لإحداهما ولكن الزمن متباعد بين السببين فالحكم يكون بنزول الآية عقب كل سبب منهما ويحمل الأمر على تكرار النزول ولا بأس من ذلك فقد ينزل الشىء مرتين تعظيما لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه .

ومثال ذلك ما أخرجه البيهقى والبزار عن أبى هريرة فى قصة استشهاد الحمزة وقول النبى صلى الله عليه وسلم لأمثلن بسبعين منهم فنزل قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . . . ﴾ آخر سورة النحل .

وما أخرجه الترمذى والحاكم عن أبى بن كعب أن لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم الحمزة فمثلوا به فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنُربينّ (أى لنزيدن عليهم) فلما كان يوم فتح مكة نزلت الآية : ﴿ وإن عاقبتم ﴾ فالروايتان تدلان على النزول ، لكن الأولى فى أحد ، والثانية فى فتح مكة ، والزمانان متباعدان ويبعد أن يكون نزول

الآية كان مرة واحدة عقيبها لبعد ما بينهما ، فتحتم القول بأن النزول تكرر بتكرر السبب والحكمة فيه ما علمت أيها القارئ الكريم .

تعدد النازل والسبب واحد

قد يتعدد المنزل والسبب واحد ، ولا مانع من ذلك لأنه لا ينافي حكمة الحكيم سبحانه فى إقناع الناس وهداية الخلق وبيان الصواب عند إشكال الأمر والوقوف عند حد ما أمر الله به سبحانه وتعالى .

ومثال ذلك ما أخرجه الترمذى والحاكم عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت يارسول الله لم أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة .

فنزل قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض[1] . . ﴾ الآية . كما أخرج الحاكم عنها أيضا قالت : قلت يارسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزل الله تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات[2] . . ﴾ الآية .

كما أخرج الحاكم عنها أيضا أنها قالت : تغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله سبحانه : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض[3] ﴾ الآية .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ . (٢) الأحزاب : ١٣٥ .
(٣) النساء : ٣٢ .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ

عُمُومُ اللَّفْظِ وَخُصُوصُ السَّبَبِ

عموم اللفظ وخصوص السبب وثيق الصلة ووشيج القرابة بعلم أسباب النزول ، وعموم اللفظ وخصوص السبب قسم من أقسام اللفظ الوارد على سبب ، وقسيم غيره من تلك الأقسام الأربعة التى لا تزيد القسمة العقلية عليها ولا تنقص عنها وإليك بيانها .

١ ـ عموم اللفظ وسببه :

ومثاله : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾ [(١)].

٢ ـ خصوص اللفظ وسببه :

ومثاله : ﴿ وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾ [(٢)] بناء على أن (أل) فى الأتقى للعهد والمعهود هو الصديق الأكبر أبو بكر رضى الله عنه .

٣ ـ خصوص اللفظ وعموم سببه :

وهذا القسم مختلف فيه ، فقيل بعدم جوازه من الناحية البلاغية وإن جاز عقلا ، وعدم الجواز بلاغة لعدم وجود التطابق بين السؤال والجواب أى بين

---

(١) البقرة : ٢٢٠ .　　　(٢) الليل : ١٧ ، ١٨ .

السبب واللفظ النازل ، كمن يسأل مثلا عن جواز فعل المسلمين لشيء ما فتكون الإجابة يجوز لفلان أن يفعل كذا ، ثم يترك حال الباقين ، ولهذا لم يقع هذا النوع فى بليغ القول من الكتاب والسنة [1] وقيل بجوازه مطلقا ومثل له الشوكانى بالسؤال عن أحكام المياه فيقول الشارع : « ماء البحر طهور » جوابا عن ذلك السؤال فيختص بماء البحر ولا يعم بلا خلاف [2].

وقيد بعضهم هذا القسم بشروط ثلاثة هى :

١ ـ أن يكون فى المذكور تنبيه على ما لم يذكر .
٢ ـ وأن يكون السائل مجتهدًا .
٣ ـ وألا تفوت المصلحة باشتغال السائل بالاجتهاد .

٤ ـ عموم اللفظ وخصوص سببه :

وهو أتم الأقسام وأوفاها بالغرض لكنه محط خلاف العلماء ، فالجمهور على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومثلوا لذلك بقوله تعالى : ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ما هن أمهاتهم . . ﴾ الآية وردت بصيغة العموم لتصدرها بالاسم الموصول وهو من صيغ العموم ويدخل تحته من نزل النص بسببه وهى السيدة خولة وزوجها أوس بن الصامت دخولا أوليا ، كما يدخل غيرها بمقتضى العموم لأن العام لفظ يستغرق الصالح له ، أما غير الجمهور فيقصرون اللفظ على سببه كما سبق بيانه ثم يكون الدليل بقياس أو غيره ويتعدى الحكم للعلة الجامعة بين المقيس والمقيس عليه .

---

(١) انظر المدخل : ص ١١٧ .

(٢) علوم القرآن للدكتور الكومى رحمه الله تعالى ص ٦٧ .

المطلق والمقيد

معنى المطلق : هو الكلى الذى لم يدخله تقييد ، فلذلك لا يكون الإنكرة لشيوعها ، ولم يقترن به ما يدل على تقييده بصفة من الصفات أو شرط من الشروط فألفاظ تدل على فرد أو أفراد غير معينة مثل :

رجل ورجال ، وكتاب وكتب وطائر وطيور وحيوان وحيوانات .

ومعنى المقيد : هو الذى دخله تقييد ، ولو من بعض الوجوه كالشرط والصفة وغير ذلك . ومثاله : رجل مؤمن ، ورجال مؤمنون ، وكتاب كريم ، وكتب قيمة ، وطائر جريح وطيور جارحة ، وحيوان ناطق وحيوانات أليفة . فهذه ألفاظ تدل على فرد أو أفراد غير معينة ولكن اقترن بها لفظ يدل على تقييدها بصفة من الصفات .

حكـــم المطـــلق

إذا ورد الخطاب مطلقا لا مقِيّدًا له حمل على إطلاقه مثال : كلمة « أيام » فى الصيام أطلقت ولم يرد دليل على تقييدها فى قوله تعالى : ﴿ ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ [١] .

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

فإنها وردت مطلقة عن التقييد بالتتابع ، ولم يرد فى نص آخر ما يقيدها ولم يقم دليل يدل على تقييدها بذلك فيعمل بها على إطلاقها ومقتضى ذلك أن من أفطر فى رمضان لمرض أو سفر لا يجب على صيام ما أفطر من الأيام متتابعات ؛ بل أن يصومها متتابعة وله أن يصومها متفرقة .

أما مثال المطلق الذى ورد فى نص مطلقا ولكن قام الدليل على تقييده كلمة « وصية » فى قوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ [1] فإنها وردت مطلقة عن التقييد بمقدار معين من التركة ، ولكن قام الدليل على تقييدها بالثلث وهو ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله مانعا لسعد ابن أبى وقاص من الوصية [2] بأكثر من الثلث فقال له : « الثلث . . والثلث كثير . . الحديث » فيكون المراد من الوصية فى الآية الكريمة الوصية فى حدود الثلث عملا بالدليل الذى دل على ذلك .

حكـــم المقيـــد

إذا ورد مقيدًا فى نص ، ولم يرد مطلقا فى نص آخر فإنه يعمل به على تقييده، ولا يصح إلغاء ما فيه من القيد إلا إذا قام الدليل على ذلك .

مثال المقيد الذى لم يقم دليل على إلغاء ما فيه من القيد صيام شهرين فى كفارة الظهار :

(فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) فالصيام ورد مقرونا بالتتابع فكان قيدا له فلا يصح فى كفارةالظهار الصيام المفرق وأن يصوم قبل أن يستمتع بزوجته فلا يصح الصيام بعد الاستمتاع وإن كان متتابعا . . فالقيد إذًا شمل أمرين :

---

(١) آية ١١ سورة النساء .

(٢) سبل السلام حـ٣/ ١٥٩ .

أحدهما : صيام شهر متتابعين

والثانى : من قبل أن يتماسا

أما مثال المقيد الذى قام دليل على إلغائه كلمة (ربائبكم) عند قوله تعالى: ﴿ وربائبكم التى فى حجوركم من نسائكم التى دخلتم بهن ﴾ ، فإن الكلمة (ربائبكم) وردت مقيدة بالحجور أى فى رعاية زوج الأم وفى بيته وقد قام الدليل على إلغاء هذا القيد فى قوله تعالى فى نفس الآية ﴿ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ فإن إلغاء هذا القيد يدل على حل التزوج بالربائب عند عدم الدخول بالأم والقاعدة الفقهية تقول :

« العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات » .

وإذا ورد اللفظ مطلقا فى نص وورد بعينه مقيدًا فى نص آخر فهل يعمل بكل منهما فى موضعه الوارد فيه أم يحمل المطلق على المقيد ويكون المراد به هو المقيد ؟

الجواب على ذلك أن هذين النصين الواردين إما أن يتحد السبب والحكم فيهما فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم لمن أفطر فى نهار رمضان عامدا : «أعتق رقبة أو صم شهرين أو أطعم ستين مسكينا » وقوله صلى الله عليه وسلم لأعرابى آخر : « فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين » ؟

فى هذه الحالة اتحد السبب وهو الإفطار المتعمد فى نهار رمضان ، واتحد الحكم أيضًا وهو صيام الشهرين لكن الصيام ورد مطلقا فى الحديث الأول بما يفيد جواز صيام الشهرين متفرقين لكن قيده فى الحديث الثانى بالتتابع فيجب حمل أحد النصين على الآخر دفعا للتعارض فيحمل المطلق على المقيد ويتعين على من أفطر فى نهار رمضان صيام شهرين متتابعين لا متفرقين .

الحالة الثانية : اتحاد السبب واختلاف الحكم فى النصين وذلك فى التطهر

بالوضوء عند قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ﴾ .

وفى التيمم : ﴿ فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ (١).

فاللفظ ورد مقيدا فى الوضوء بكونها إلى المرافق ، وأطلق فى التيمم فاتحد السبب فى النصين وهو إرادة الصلاة عند وجود الحدث واختلف الحكم فيهما ففى النص الأول وضوء وغسل لليد بالماء وفى النص الثانى تيمم ومسح لليد بالتراب وعند أكثر العلماء فى هذه الحالة لا يحمل المطلق على المقيد لأنه لا تعارض بين إطلاق مسح اليد فى التيمم وتقييد الغسل فى الوضوء بكونه إلى المرافق ، وذهب أكثر الشافعية إلى حمل المطلق على المقيد فى هذه الحالة للارتباط بين النصين بوحدة السبب .

الحالة الثالثة : اختلاف السبب واتحاد الحكم فى النصين مثاله قوله تعالى فى كفارة القتل الخطأ : ﴿ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحريررقبة مؤمنة ﴾ (٢) .

وفى كفارة الظهار : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ (٣).

ورد اللفظ فى الآية الأولى مقيدًا بالإيمان وأطلق فى الآية الثانية ، وقد اختلف السبب فى النصين فإنه القتل خطأ فى الآية الأولى ، وإرادة العودة من المظاهر إلى مخالطة زوجته فى الآية الثانية .

وقد اختلف العلماء فى هذهالحالة فذهب الشافعية إلى حمل المطلق على

---

(١) المائدة : الآية ٦ .

(٢) النساء : ٩٢ .

(٣) المجادلة : ٣ .

المقيد عند اتحاد الحكم واختلاف السبب لظهور رغبة الشارع فى تحرير رقاب المؤمنين فيحمل المطلق فى كفارة الظهار على المقيد فى القتل الخطأ لأن الإيجاز من الإعجاز فذكر القيد فى موضع يغنى عن ذكره فى موضع آخر ، وكلام الله تعالى واحد يفسر بعضه بعضا .

وذهب الحنفية إلى عدم حمل المطلق على المقيد فى هذه الصورة لعدم وجود ما يدعو إلى ذلك وليس ثمة من تعارض بين تحرير الرقبة المؤمنة فى كفارة القتل الخطأ وتحرير رقبة مطلقا مؤمنة أو غير مؤمنة فى كفارة الظهار وأن اختلاف سبب الكفارتين هو الذى دعا إلى الإطلاق فى الظهار والتقييد فى القتل الخطأ فالمناسب للظهار التخفيف فأطلقت الآية والمناسب لقتل الخطأ التشديد ؛ لأنه أضاع نفسا مؤمنة فوجب التعويض بأخرى من نفس النوع ثم ترد إليها حريتها ومما يؤيد التشديد فى قتل الخطأ وقفت عند صيام شهرين والتساهل فى كفارة الظهار أنها تجاوزت الصيام إلى أمر أخف منه وهو إطعام ستين مسكينا[1] .

الحالة الرابعة : اختلاف السب واختلاف الحكم فى النصين مثل قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ [2]وقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ﴾ [3].

وردت اليد مطلقة فى آية السرقة ووردت مقيدة فى آية الوضوء بكونها إلى المرافق .

اختلف سبب الحكم فى الآيتين فسبب الحكم فى الأولى السرقة وفى الثانية

---

(١) انظر نيل الأوطار للشوكانى : ٦ / ٢٩٢ .

(٢) المائدة : ٣٨ .

(٣) المائدة : ٦ .

إرادة الصلاة مع وجود الحدث كما اختلف الحكم فكان قطع اليد فى السرقة وغسل اليد فى الوضوء .

وقد اتفق العلماء على عدم حمل المطلق على المقيد فى هذه الحالة لعدم وجود تعارض بين النصين ولعدم وجود رابطة بينهما لاختلاف السبب والحكم فيهما فلم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك .

وكان مقتضى ذلك أن تقطع يد السارق كلها عملا بالإطلاق فى آية السرقة لكن هذا الإطلاق قد ورد فى السنة ما يدل على تقييده بالكفين وهو ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بقطع يد السارق من الرسغ . والله أعلم .

العَامّ

هو اللفظ الموضوع لمعنى واحد ليشمل جميع الأفراد التى يصدق عليها معنى هذا اللفظ من غير حصر فى عدد معين .

أما الخاص فإنه يدل على فرد واحد أو أفراد محصورين فلفظ (كل شىء) فى قوله تعالى : ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ لفظ عام يشمل جميع الأشياء دون أن يخرج فرد منها ودون أن تكون محصورة فى عدد معين .

١ ـ ومن ألفاظ العموم لفظ (كل) ولفظ (جميع) فى مثل قوله تعالى : ﴿كل امرئ بما كسب رهين ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ [٢] .

٢ ـ الجمع المعرف بأل الجنسية التى تفيد الاستغراق مثل قوله تعالى : ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ فيدخل فيه كل محسن وقوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ [٣]فيدخل فيه كل والدة .

٣ ـ الجمع المعرف بالإضافة : مثل قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ [٤] فيدخل فيه جميع الأولاد .

---

(١) الطور : ٢١ . (٢) البقرة : ٢٩ .

(٣) البقرة : ٢٣٣ . (٤) النساء : ١١ .

٤ ـ المفرد المعرف بأل الجنسية التى تفيد الاستغراق مثل قوله تعالى : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾[1] فتشمل كل سارق وسارقة كما أنها لا تحصر الأفراد فى عدد معين .

٥ ـ المفرد المعرف بالإضافة : كقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ [2]فإنه يشمل جميع الأوامر .

٦ ـ الأسماء الموصولة : كقوله تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ [3]فإنه يشمل كل قاذف .

٧ ـ أسماء الاستفهام مثل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ [4] فإنه يشمل كل مقرض .

٨ ـ النكرة فى سياق النفى أو فى سياق النهى أو الشرط مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ﴾ [5].

وقوله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ [6].

فالحديث يشمل جميع الوصايا لوقوع لفظ وصية بعد النفى كما تشمل الآية الأولى جميع المنافقين لوقوع لفظ (أحد) بعد النهى وتشمل الآية الثانية جميع الفاسقين لوضوع لفظ (فاسق) بعد أداة الشرط (إِنْ) .

لفتة

النكرة فى سياق الإثبات لا تفيد العموم مثل قوله تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [5] فلفظ رجال نكرة ولكنه فى سياق

---

(١) المائدة : ٣٨ . (٢) النور : ٦٣ . (٣) النور : ٤
(٤) الحديد : ١١ . (٥) التوبة : ٨٤ . (٦) الحجرات : ٦ .

الإثبات فلا تفيد العموم فإذا قلت : فكيف بوصف أهل الجنة فى تناولهم جميع أنواع الفاكهة فى قوله تعالى : ﴿ لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴾ حيث أفادت العموم ؟ قلت : إنما دلت عليها القرنية لأن الآية واردة فى معرض الامتنان من الله عز وجل على عباده وذلك مقتض لوجود جميع الفواكه شمول جمع المذكر للإناث :

ذهب جمهور العلماء على أن جمع المذكر لا يشمل الإناث بحسب الظاهر وإنما يشملهن على سبيل التغليب إذا دلت على ذلك قرينة ، وذهب بعضهم إلى شمول جمع المذكر للإناث لمشاركتهن للذكور فى الأحكام .

وتعددت آراء العلماء فى دلالة العام على جميع أفراده وهل هى دلالة قطعية أو ظنية ؟

العلماء فى ذلك فريقان . . ونمهد لهذا الخلاف بتحرير محله فنقول :

العام . مفرد كلفظ (مَن) فى قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن » وأفراده كل واحد .

وغير مفرد : كلفظ « الطلاب » فى مثل قولنا : « الدولة ترعى مصالح » الطلاب » وأفراده أقل الجمع ، وأقل الجمع اثنان .

دلالة العام على ثبوت الحكم لواحد غير معين فى العام المفرد ولجماعة غير معينة فى العام غير المفرد كالمثالين السابقين دلالة قطعية ؛ لأن الواحد وأقل الجمع وهو اثنان لا يحتمل التخصيص فثبوت الحكم له مقطوع به ولا خلاف فى ذلك .

أما أكثر من الواحد والاثنين فذلك محل الخلاف .

الحنفية يقولون إنها قطعية ، والشافعية يقولون إنها ظنية .

وقد استدل الحنفية على مذهبهم فى قطعية دلالة العام على جميع أفراده بأن اللفظ العام موضوع ليدل على جميع الأفراد فتكون دلالته قطعية .

أما الشافعية فيقولون بأن كل عام يحتمل التخصيص احتمالا ناشئًا عن دليل فإن العام يمكن تأكيده بألفاظ التوكيد مثل : كل وجميع ، والتأكيد لرفع الاحتمال ، ولا رفع إلا لشىء موجود كقوله تعالى : ﴿ والله بكل شىء عليم﴾ .

وقد شاع على ألسنة العلماء قولهم : « ما من عام إلا وخصص » .

ثمرة الخلاف فى دلالة العام

كان من ثمرة هذا التعدد فى دلالة القطعية عند الأحناف وظنية الدلالة عند باقى الفقهاء ما يأتى :

يجوز عند الجمهور تخصيص العام الوارد فى كتاب الله تعالى أو سنة رسوله المتواترة ابتداء بدليل ظنى كالقياس وخبر الآحاد ؛ لأن كلا منهما ظنى فعام القرآن أو السنة المتواترة ظنى فى دلالته ، وخبر الآحاد ظنى فى ثبوته ، والقياس ظنى أيضًا .

أما هذا التخصيص لا يجوز ابتداء عند الحنفية ؛ لأن العام قطعى فى دلالته ، فلا يعارضه الدليل الظنى من قياس أو خبر آحاد .

ومن ثمرة هذا الخلاف صدور الحكم من الفقهاء على بعض المسائل الفقهية مثل :

ذبيحة المسلم إذا ترك التسمية عمدا .

أجاز الشافعية الأكل منها لقوله صلى الله عليه وسلم : « ذبيحة المسلم

حلال ؛ ذكر اسم الله عليها أو لم يذكر » وهو حديث آحاد خصص به العموم الوارد فى قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكراسم الله عليه ﴾ [1].

بينما حرم الحنفية الأكل منها استدلالا بعموم الآية وشمولها لجميع الذبائح شمولا قطعيا ، فلا يخصصه الظنى وهو خبرالآحاد ثانيا : لا تعارض بين الخاص والعام عند جمهور العلماء لأن الخاص قطعى والعام ظنى ، ولا يعارض الظنىُّ القطعىَّ ؟ فيعمل بالخاص فى نطاقه ، ويعمل بالعام فيما وراء ذلك .

أما الحنفية فيرون وجود التعارض بين الخاص والعام فيما دل عليه لفظ الخاص ؟ لأن كلا منهما قطعى .

---

(١) الأنعام : ١٢١ .

التخصيص

عرف التخصيص بتعريفات أدقها : « قصر العام على بعض أفراده » فهو يقصر الحكم الثابت للعام على بعض الأفراد التى يتناولها فمثلا : إذا قلت : أكرم العلماء ؛ فتفيد هذه العبارة إكرام جميع العلماء فإذا قيدتهم بصفة العاملين فقلت : أكرم العلماء العاملين أو إن كانوا عاملين أصبح مفاد هذا التعبير قصر الحكم على بعض الأفراد من أهل العلم وهم من تحقق فيهم الوصف بالعمل دون من عداهم من الأفراد التى يتناولها لفظ « العلماء » إذ لا يزال لفظ العلماء متناولا للعاملين وغيرهم ؛ فالتخصيص أخذا من هذا هو ما يفيد قصر الحكم الثابت للعام على بعض الأفراد التى يتناولها .

تخصيص القرآن بالقرآن

جائز اتفاقا وقد وقع . اقرأ قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ [1] تجده عاما لكل مطلقة حاملا كانت أو غير حامل . ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ [2] تجده متناولا لكل متوفى عنها زوجها حاملا كانت أو غير

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .
(٢) البقرة : ٢٣٤ .

حامل ثم اقرأ مع هاتين الآيتين قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ [1] تجد أنها مع الآية الأولى تخرج المطلقات الحوامل من الحكم الثابت للمطلقات ومع الآية الثانية تخرج المتوفى عنهن الحوامل من الحكم الثابت للزوجات المتوفى عنهن ، فليس الحكم فى المطلقة الحامل أن تتربص ثلاثة قروء ، وليس الحكم فى حق المتوفى عنها الحامل أن تتربص أربعة أشهر وعشرا وإنما حكمها فى الحالين أن تنتظر وضع الحمل طالت مدة الانتظار أو قصرت .

وأما تخصيص القرآن بالسنة المتواترة فقد حكى الكل الاتفاق عليه .

أما إن كانت غير متواترة من قبيل الواحد فهى محل البحث .

تخصيص القرآن بخبر الواحد

تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز . يقول ابن الحاجب : إنه الحق ويقول الآمدى : إنه مذهب الأئمة الأربعة .

ونقل عن بعضهم أن ذلك غير جائز مطلقا ، والقائلون بالجواز هم الجمهور ويقولون إن ذلك قد وقع ، ووقع من الصحابة رضوان الله عليهم ، ولم يُنكر عليهم هذا ؛ فكان إجماعا والوقائع الدالة على ذلك كثيرة منها :

أنهم خصوا عموم قوله تعالى : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ [2] بحديث : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » كما خصصوا عموم قوله تعالى : ﴿يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ [3] بما روى الصديق الأكبر أبو بكر رضى الله عنه : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » وخصصوا عموم قوله

---

(١) الطلاق : ٤ . (٢) النساء : ٢٤ .

(٣) النساء : ١١ .

تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ [1] بحديث : « لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين » وخصصوا عموم قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾[2] بحديث : « لا قطع إلا فى ربع دينار » .

كما أن العقل يقضى بأنه إذا اجتمع نصان : أحدهما عام والآخر خاص فالعمل بموجب الخاص متعين أو مترجح ، لأن العمل به عمل بالدليلين ، وعدم العمل به ترك لأحدهما ، والأول أحق بالاتباع من الثانى .

ومن ذهب إلى عدم الجواز يقول : العام قطعى ، وخبر الواحد ظنى فلو خص القطعى بالظنى لكان ذلك ترك قطعى للعمل بظنى وذلك باطل ، وتأيد هذا بما نقل أن عمر رضى الله عنه رد خبر فاطمة بنت قيس أن لها السكنى والنفقة ولم يعتبره مخصصا لعموم قوله تعالى : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ [3]. ثم لو جاز تخصيص القرآن بخبر الواحد لجاز النسخ به ؛ فإن كلا منهما بيان ، والنسخ به لا يجوز فكذلك التخصيص به لا يجوز أيضا .

وهذا الاستدلال من القائلين بعدم الجواز مردود بما يلى : أن عمر لم يرد خبر فاطمة بنت قيس لكونه خبر آحاد ، بل رده لأمر آخر بينه رضى الله عنه فى قوله : « إنا لاندع كتاب ربنا لقول امرأة لا ندرى أصدقت أم كذبت » وذلك واضح كل الوضوح فى بيان علة الرد ، وأنها التردد فى صدق الرواية وكذبها .

التخصيص بالقياس

تخصيص القرآن بالقياس فيه مذاهب :

الأول : وهو رأى الأئمة الأربعة والأشعرى إمام أهل السنة والجماعة وأبى

---

(١) البقرة : ٢٧٥ . (٢) المائدة : ٣٨ .

(٣) الطلاق : ٦ .

هاشم وأبى الحسين البصرى من المعتزلة يقولون بالجواز مطلقا سواء كان القياس قطعيا أم ظنيا .

الثانى : لا يجوز التخصيص بالقياس مطلقا وهو رأى الجبائى من المعتزلة وفريق معه .

الثالث : يجوز تخصيص القرآن بالقياس الجلى دون الخفى وهو رأى ابن سريج الشافعى .

الرابع : يجوز تخصيص القرآن بالقياس إن كانت علته منصوصة أو مجمعا عليها ، ولا يجوز إن ثبتت العلة بغير ذلك .

والقياس الجلى هو ما قطع فيه بنفى تأثير الفارق بين المقيس والمقيس عليه كقياس العبد على الأمة فى تنصيف حد الزنا لكل منهما لاشتراكهما فى الرق أما الفارق بينهما وهو الذكورة والأنوثة فلا تأثير له فى الحكم .

أما القياس الخفى فهو ما لم يقطع فيه بنفى تأثير الفارق بين المقيس والمقيس عليه كقياس النبيذ على الخمر فى التحريم لاشتراكهما فى علة الإسكار ؛ فإن الفارق بين الخمر والنبيذ كون أحدهما من ماء العنب خاصة فيجوز أن يكون ذلك هو المؤثر فى الحكم ، ويجوز أن يكون المؤثر غير كونه من ماء العنب بل مطلق الإسكار مثلا فتأثير الفارق بين المقيس والمقيس عليه هنا غير مقطوع بنفيه لذلك أجاز ابن سريج تخصيص القرآن بالقياس الجلى دون الخفى .

حكم العمل بالعام قبل البحث عن المخصص

نقل الغزالى والآمدى الإجماع على منع العمل بالعام قبل البحث عن المخصص ، ومذهب الحنفية كما يحكيه عنهم الكمال ابن الهمام وصاحب مسلم الثبوت أنه يجوز العمل بالعام قبل البحث عن المخصص ووافقهم على

ذلك البيضاوى ، وحكى أبو إسحاق الاسفراييني الاتفاق على ذلك . ويؤيد هذا أن العمل بالعام قبل البحث عن المخصص قد وقع فعلا من الصحابة رضوان الله عليهم حيث طالبت السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالميراث استنادًا إلى العموم فى آية المواريث ، ولم تبحث عن المخصص الذى ظهر بعد ذلك فى قول أبى بكر :

« نحن معاشر الأنبياء لا نورث . . . » وقضى عمر رضى الله عنه بالدية فى الأصابع بمجرد علمه بها فى كتاب عمرو بن حزم ولم يبحث عن المخصص . ونقل عن بعضهم القول بأن هناك تفصيلاً أحسن . ملخصه : أن الصحابة يجوز لهم العمل بالعام قبل البحث عن المخصص ؛ فإنه لا يحتمل الخفاء عليهم لو كان . وأما العامى الذى يحتمل الخفاء عليه فيتوقف عن العمل بالعام قبل البحث عن المخصص . والمجتهدون من علماء الأمة الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد فى حكم الصحابة .

النَّصُّ

هو اللفظ الذى يدل على معنى متبادر منه ومقصود من الكلام أصالة مع احتماله للتأويل وقبوله للنسخ فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنه يدل على معناه دلالة قطعية ولا يحتمل غيره أصلا كمحمد وعلى وإبراهيم ، وكالعدد خمسة وعشرة .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ فى دلالته على نفى المماثلة بين البيع والربا لأنه معنى متبادر منه وهو المقصود الأصلى من سوق الكلام ، واحتمال التأويل والنسخ قائم فى النص كما سبق فى الظاهر .

والفرق بين الظاهر والنص ينحصر فى أن النص يمتاز على الظاهر بأن المعنى الذى يدل عليه هو المقصود الأصلى من سوق الكلام . أما الظاهر فإن المعنى المأخوذ منه لا يكون مقصودا أصليا من الكلام .

حكم الظاهر والنص : وحكم الظاهر والنص هو وجوب العمل بالمعنى المستفاد منهما حتى يقوم الدليل على التأويل أوالنسخ .

ومن التأويل الذى قام عليه الدليل أن البيع فى قوله تعالى ﴿ وأحل الله البيع﴾ قد خصص بنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن بيع الغَرَر ، وبيع الإنسان ما ليس عنده .

المفسر

هو اللفظ الذى يدل على معنى متبادر منه ومقصود من سوق الكلام دون أن يحتمل تأويلاً ؛ مع احتماله للنسخ فقط فى عهد الرسالة .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ [1] .

فى دلالته على عدد الجلدات فإنه متبادر مقصود من سوق الكلام ؛ لأن الآية قد نزلت لبيان عقوبة القذف ولفظ « ثمانين » الذى دل على العدد لفظ خاص لا يحتمل تأويلا بالزيادة ولا بالنقصان إلا أن هذا الحكم حكم جزئى كان من الجائز نسخة فى عصر الرسالة فكان محتملا للنسخ والتغيير فى ذلك الوقت .

ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ [2] فى دلالته على قتال جميع المشركين فإنه معنى متبادر ومقصود من سوق الكلام ولفظ (المشركين) من قبيل العام الذى يحتمل التخصيص ولكن كلمة (كافة) نفت هذا الاحتمال فأصبح اللفظ (المشركين) مع (كافة) غير محتمل للتخصيص ، ولولا كلمة كافة التى نفت هذا الاحتمال لكان هذا اللفظ من قبيل النص لا المفسر .

حكم المفسر : وحكم المفسر وجوب العمل به إلا إذا قام دليل على نسخه .

---

(١) النور : ٤ .

(٢) التوبة : ٣٦ .

المُحكَم

هو اللفظ الدال على المعنى المتبادر منه ، والمقصود من سوق الكلام دون أن يحتمل تأويلا ولا تخصيصا ولا نسخا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولا بعد وفاته .

ومثال قوله تعالى : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ (1) .

وهذا النص المحكم يفيد حرمة الزواج بأمهات المؤمنين حرمة مؤبدة غير قابل للتأويل ولا للنسخ فى عصر الرسالة لوجود قيد الأبدية فى الآية الكريمة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » حيث صرح الحديث الشريف ببقاء حكم مشروعية الجهاد إلى يوم القيامة غير قابل للتأويل ولا للنسخ فى عصر الرسالة .

كما أن من المحكم النصوص التى جاءت بأحكام أساسية كوجوب الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وكوجوب التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل ، وكذلك النصوص التى جاءت فى القرآن بأخبار ماضية

---

(1) الأحزاب : ٥٣ .

أو مستقبلة كأخبار الأنبياء وأقوامهم فى العهود الماضية ، والأخبار بالآيات فى المستقبل كهزيمة الروم ثم انتصارهم بعد ذلك ونزول الدابة فى قوله تعالى : ﴿غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ (٢) .

وبوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أصبحت كل النصوص التشريعية محكمة حتى ما كان قابلا للنسخ منها فى حياته لعدم إمكان نسخها بعد وفاته عليه السلام .

حكم المحكم : والمحكم يجب العمل به لقوة وضوحه وعدم احتماله للتأويل أو النسخ .

الألفـــاظ باعتبـــار وضـــوحهـا

واللفظ الواضح ينقسم أربعة أقسام : ظاهر ونص ومفسر ومحكم .

فالظاهر : هو اللفظ الذى يدل على المعنى المتبادر منه ، ولكنه ليس مقصودا أصليا من الكلام ؛ مع احتماله للتأويل فى الخاص والتخصيص فى العام وقبوله للنسخ فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربوا ﴾ فى دلالته على حل البيع وعلى حرمة الربا ؛ فإنه ظاهر فى دلالته على هذين المعنيين لتبادرهما منه ؛ مع كونهما ليسا مقصودين أصالة من هذا الكلام ؛ فإن المقصود الأصلى منه هو

---

(١) الروم : الآية الثانية .　　　(٢) النمل : ٨٢ .

نفى المماثلة بين البيع والربا ، ردا على من قالوا (إنما البيع مثل الربا) وذلك أن الآية تقول : الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا) [1] .

ومع هذا فإن لفظى البيع والربا من ألفاظ العموم لدخول « ال » الجنسية والاستغراقية عليهما فيحتمل كل منهما التخصيص كما أن حل البيع وحرمة الربا من الأحكام الجزئية التى كان يجوز نسخها فى وقت التشريع مدة حياة الرسول صلى الله عايه وسلم .

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .

المُشتَرَكُ

هو اللفظ الذى وضع لمعنى ، ويصلح لمعنى آخر غيره كلفظ « العين » فإنها وضعت لمعان متعددة بأوضاع مختلفة فمن معانيها : العين الباصرة ، والعين الجارية ، والذهب والدينار ، والجاسوس ، والشمس ، وحرف الهجاء المعروف « ع » وغير ذلك [1] .

ولفظ « القرء » فإنه وضع لمعنيين الحيض والطهر ولفظ « المولى » فإنه موضوع للسيد والعبد ، ولفظ «بان » موضوع لمعنى « انفصل » وموضوع لمعنى « ظهر » .

ولفظ « المشترى » فإنه موضوع للكوكب المعروف ، وموضوع لمقابل البائع .

وكحرف الباء فإن من معانيه الإلصاق ، والاستعانة والسببية والظرفية والمصاحبة .

استعمال المشترك فى معانيه :

اتفق العلماء على أن الأصل فى اللغة عدم الاشتراك ليدل اللفظ على معنى

---

(١) القاموس المحيط باب النون ـ فصل العين .

واحد لا التباس معه ؛ فإذا احتمل اللفظ الاشتراك وعدمه فالأرجح عدم الاشتراك .

وإذا تحقق الاشتراك فابحث عن قرينة تساعدك على المعنى المقصود من اللفظ المشترك . وقد تكون القرينة لفظية فى مثل قوله تعالى : ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ فالتفجير قرينة على أن المراد عيون الماء ، وكما يقال : أعدم فلان لأنه كان عينا للأعداء فإن الإعدام قرينة على أن المراد بالعين الجاسوس .. وهكذا.

ولا يجوز استعمال المشترك فى أكثر من معنى واحد مطلقا عند أكثر الحنفية وبعض الشافعية ومنهم الفخر الرازى لأن المشترك موضوع لكل معنى من معانيه بوضع خاص ولم يوضع ليدل على جميع معانيه مرة واحدة فلا يجوز لك أن تقول : « رأيت عينا » وتريد بذلك أنك رأيت عينا باصرة وعينا جارية وجاسوسا ... إلخ بل يجب أن يكون المقصود بها معنى واحدًا من هذه المعانى . ولا يتم ذلك إلا بإلحاق المشترك بالقرينة المساعدة على توضيح المراد حتى لا يكون الكلام مبهما .

وإذا كان الكلام مبهما صار مشكلا .

فالمشكل : هو اللفظ الذى لا يتضح معناه فى أول الأمر لسبب ذاتى كأن يكون اللفظ مشتركا وموضوعا لمعان متعددة ولا يعرف المراد منه إلا بالنظر والبحث فى القرائن المعينة لتزيل إشكاله .

ومثال ذلك لفظ «القرء » فى قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ [1] فإنه مشترك بين معنيين هما : الحيض والطهر فلا يتضح المعنى

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

المقصود منه فى الآية وهذا خفاء فى اللفظ ذاته ، وقد اجتهد العلماء فى تحديد المراد منه وإزالة خفائه بالبحث والتأمل فى القرائن واختلفوا فى ذلك :

فذهب الأحناف والحنابلة إلى أن «القرء» يقصد منه الحيض مستدلين بالقرائن والأدلة التالية :

أولا : يقول الله تعالى فى نفس الآية : ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ﴾ [1] فإنه يدل على أن المراد بالقرء الحيض لأنه الذى يوجد فى الأرحام وليس الطهر .

ثانيا : يقول الله تعالى : ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ [2] فقد جعل العدة بالأشهر مكان الحيض عند اليأس منه ، فدل ذلك على أن القرء هو الحيض .

ثالثا : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلاق الأمة ثنتان وعدتها حيضتان » فقد اعتبر الحديث عدة الأمة بالحيضات فيكون دليلا على أن المراد بالقرء فى الآية بالنسبة للحرة هو الحيضة .

رابعا : أجمع العلماء على أن استبراء الأمة بعد شرائها يكون بالحيضة فتكون العدة كذلك ؛ لأن الغرض فى الحالين واحد وهو التعرف على براءة الرحم أى خلوه من الحمل .

خامسا : المقصود الأصلى من العدة هو التعرف على براءة الرحم أى خلوه من الحمل ، والذى يعرف خلو الرحم من الحمل هوالحيض لا الطهر ، فإن الطهر يكون مع وجود الحمل .

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

(٢) الطلاق : ٤ .

سادسا : قول الرسول للمستحاضة : « دعى الصلاة أيام إقرائك» فكان معنى القرء هو الحيض لا الطهر فى لسان الشرع .

سابعا : لو كان المراد بالقرء «الطهر » لصرحت به الآية الكريمة ولم تعبر عنه بلفظ مشترك ؛ لأن الطهر لا يستحى من ذكره أما الحيض فإنه الذى يستحى من ذكره فعبر عنه بالقرء كما عبر عن الجماع باللمس والمس .

وذهب الشافعية والمالكية إلى أن المراد بالقرء « الطهر » مستدلين بما يلى :

أولا : أن الآية قد أنثت العدد (ثلاثة) فى قوله : (ثلاثة قروء) والقاعدة العربية تقضى بتأنيث العدد إذا كان المعدود مذكرًا وفى هذا ما يدل على أن القروء هى الأطهار لا الحيضات .

وغنى عن البيان أن الأطهار مفردها طهر وهو مذكر والحيضات مفردها حيضة وهى مؤنثة ؛ فكان تأنيث العدد دالا على أن المعدود مذكر وهو الاقراء بمعنى الأطهار .

ثانيا : أن الطلاق المشروع يكون فى الطهر لا فى الحيض والله سبحانه تعالى يقول : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ [1] .

أى فى عدتهن لأن اللام بمعنى « فى » كقوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ [2] أى فى يوم القيامة فكانت العدة محتسبة بالأطهار ؛ لأنها قد عبرت عنها الآية بالعدة .

ثالثا : أن القرء معناه فى الأصل الجمع والضم ؛ فكان تفسير القرء بالطهر أقرب إلى هذا المعنى الأصلى فإن الدم يتجمع فى الرحم مدة الطهر ، ثم يلفظه الرحم ويدفعه مدة الحيض .

---

(١) الطلاق : الآية الأولى .

(٢) الأنبياء : ٤٧ .

حكم المشكل : ولما كان من الممكن إزالة خفاء اللفظ المشكل بالبحث فى القرائن والأدلة ، وجب على المجتهد القيام بذلك حتى يتوصل إلى المعنى المقصود .

ومن مبهم الكلام أيضا :

المجمل : وهو اللفظ الذى لا يتضح معناه لذاته ، ولا يزول خفاؤه إلا ببيان من المتكلم ؛ فالفرق بين المشكل والمجمل أن المشكل يكون للعقل مجال فى بيان معناه بالبحث فى القرائن أما المجمل فلا يستطيع العقل الوصول إلى تحديد المراد منه ، فكان لابد فيه من الرجوع إلى مصدره لبيانه .

ومثال المجمل لفظ الصلاة والزكاة فى قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ فإن المعنى اللغوى للصلاة هو الدعاء وللزكاة هو النماء ، وقد جاءت فى لسان الشرع بمعنى خاص ولا يمكن معرفة هذا المعنى الخاص إلا من الشارع نفسه ولهذا جاءت السنة العملية والقولية ببيان المقصود من هذه الألفاظ المجملة فى القرآن ، وقد أصبحت بعد هذا البيان الكافى مفسرة .

حكم المجمل :

إذا ورد فى النصوص لفظ مجمل لم يكن هناك سبيل إلى توضيح معناه إلا بالرجوع إلى المتكلم به ؛ لأنه هو وحده الذى يعرف المقصود منه لعدم وجود أدلة ولا قرائن تعين على تفسيره ؛ فإذا ورد بيان المتكلم وافيا كافيا أصبح اللفظ المجمل مفسرا وإلا صار مشكلا .

المتشـــابه :

هو الفظ الذى لم يتضح معناه لذاته ، ولا توجد قرائن توضحه ولم يرد عن الشارع دليل قطعى أو ظنى يوضحه .

مثال ذلك : الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور فى قوله تعالى : (الٓمٓ) (الٓمٓرٰ) (حمٓعسٓقٓ) (حمٓ) (صٓ) (قٓ) (نٓ) فإن هذه الألفاظ لا توجد قرائن توضح المقصود منها ولم يرد عن الشارع تفسير لها .

وعلماء السلف يعدون من المتشابه النصوص التى توهم مشابهة الله لخلقه فى مثل قوله تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ [٣] .

فالآية الأولى تثبت لله يدا ، والثانية والثالثة تثبت لله جهة ومكانا مع أن الله تعالى منزه عن ذلك ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ [٤] فالسلف يثبتون ذلك لله ويؤمنون به ولا يبحثون فى معناه ولا يتأولون وإنما شأنهم التفويض فى ذلك إلى الله تعالى .

أما علماء الخلف فيتأولون هذه النصوص ويصرفونها عن ظاهرها لاستحالة نسبة ذلك التشبيه إلى الله تعالى ويرون أنها مستعملة فى معان مجازية مشهورة فاليد بمعنى القدرة والمجىء أمر الله والمعية فى قوله تعالى : ﴿ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ [٥] معية علم وإحاطة لامعية مكان وجهة ، فوجود المتشابه فى القرآن ثابت لاشك فى ذلك كما قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [٦] .

---

(١) الفتح : ١٠ .
(٢) الفجر : ٢٢ .
(٣) المجادلة : ٧ .
(٤) الشورى : ١١ .
(٥) المجادلة : ٧ .
(٦) آل عمران : ٧ .

غير أن بعض العلماء يرون أن هذا المتشابه لا سبيل إلى إدراك معناه والوقوف عنده أسلم لقوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ أما الراسخون فى العلم فيفهمون المتشابه ويعلمون حقيقته ويجنحون إلى تأويله ويرون أنهم بذلك أعلم .

حكم المتشابه :

يجب الإيمان بالنصوص المتشابهة باتفاق السلف والخلف مع التفويض عند الفريق الأول والتأويل عند الفريق الثانى .

الكلام على بعض لطائف قوله تعالى :
﴿ ليس كمثله شىء ﴾ [1]

يقول صاحب الفضيلة العلامة المحقق المدقق المحدث الفقيه الصوفى الشيخ سلامة القضاعى العزامى الشافعى حول معنى هذه الآية : « ليس كمثله شىء من الكائنات وإن علا فى الشيئية كعبه ، وارتفعت عندكم درجة وجوده، وامتاز لديكم فى كمالاته الفائقة ببالغ درجة أن يشبه مثل جنابه الأعلى عن الأمثال فى شىء مما هو عليه عز وجل فى تقدس ذاته وجلال صفاته .
والعرب إذا أرادت المبالغة فى الإثبات أو النفى قالت :

« مثلك من يجود ، ومثلك من لا يبخل » لتدل بالإتيان بلفظ المثل على الإثبات والنفى ؛ لما أثبتت أو نفت عن المخاطب بطريقة برهانية على سبيل كناياتهم البديعة فكأنهم يقولون : من كان على ما أنت عليه من الصفات فقد

---

(١) البراهين الساطعة فى رد البدع الشائعة للعلامة الصوفى الشيخ سلامة العزامى . ص ٢٤٥ وما بعدها .

ثبت له كذا أو نفى عنه كذا فأنت أولى بذلك الإثبات أو النفى . وقد خاطبهم القرآن على أروع أساليبهم ، وزاد هذا الأسلوب على ما يخطر لأفصحهم بيانا بدرجات لا تحصى فكأنه سبحانه وتعالى يقول : « كل شىء من الممكنات ، وإن تقدم لديكم فى الكمالات فهو متأخر كل التأخر عن أدنى درجات الشبه لمثلنا لو فرض لنا مثل فى شىء من الكمالات ، وهو ، وإن علا فى كماله فى أنظاركم أحط من أن يرقى إلى رتبة من الشبه فى شىء هو مماثلنا المفروض من الصفات فكيف له بشبهنا ذاتنا ونحن فى تَعَالِي كمالنا ، وارتفاع جلالنا ، أعلى من أن يقع نفى مشابهتنا لخلقنا فى صريح العبارات ؛ فإن من كان بالمحل الأعلى من الكمال الأسنى بحيث يستحيل أن يشاركه فيه شىء لا يتوهم فيه أن يشبه ما هو أدنى حتى ينفى عنه الشبه به وإنما يتوهم فيمن أوتى حظا من الكمالات أن يكون له شىء الشبه بمن هو أعلى فلينف هذا الوهم ، ولترسخ أقدامكم فى العلم بأنه لا يشبه مثلنا التقديرى الفرضى شىء فضلا عن أن يشبه ذاتنا العلية » .

النَّسْخ

يطلق النسخ تارة عند اللغويين على الإزالة ، فيقال نسخت الشمس الظل إذا أزالته ، كما يطلق تارة أخرى على نقل الشىء وتحويله من حالة إلى حالة أو من مكان إلى مكان كتناسخ المواريث أى انتقالها من يد إلى يد ، كما تقول نسخت النحل أى نقلته من خلية إلى خلية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ [١] أى ننقله .

أما فى مصطلح الأصوليين : فقد عرف بتعريفات كثيرة مدار الخلاف بينها أنه البيان تارة ، والرفع تارة أخرى ، وسيتضح لك أيها القارئ الكريم أنهما ينتهيان إلى معنى واحد ونورد هنا تعريفين نموذجًا لما أشرنا إليه .

التعريف الأول :

« هو بيان انتهاء حكم شرعى بطريق شرعى متراخ عنه ، ومعنى هذا أن الحكم الشرعى مرتبطٌ بغاية عند الله تعالى أو محدود بوقت معين ، فإذا انتهت هذه الغاية أو حل الوقت المعين انتهى الحكم لذاته .

---

(١) الجاثية : ٢٩ .

التعريف الثانى :

« هو رفع حكم شرعى بطريق شرعى متراخ عنه » وإذا دققت النظر فى التعريفين وجدت أن الفارق بينهما كلمتان : بيان ، ورفع ؛ فمن زعم أن الحكم قديم ـ والقديم لا يرتفع ـ قال : إنه بيان ، ومن ذهب إلى أن الحكم هو الحكم الأصولى وهو الذى يكون مثبتا تارة ومنفيا أخرى ؛ فهو حادث عبر بلفظ «الرفع » فإن وقع التعبير بالبيان أو الرفع فلا بأس .

أقســام النســخ

ينقسم النسخ إلى ثلاثة أقسام :

الأول : نسخ الحكم دون التلاوة ومثاله من القرآن قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج ﴾ أوجبت العدة حولا كاملا على المتوفى عنها زوجها . وقد نسخها قوله تعالى : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصين بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ نسخ حكمها آيات القتال بالنسبة للكفار من غير أهل الكتاب .

الثانى : نسخ التلاوة فقط ومثاله : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله ، والشيخ المحصن والشيخة المحصنة . قلت : والمحصن الذى تم له العقد الشرعى ولو لم يدخل . وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا حين زنى بالغامدية ، وقصتها معروفة فى كتب السنة ولم ينقل إلينا هذا اللفظ قرآنا يتلى ، وبعضهم يمثله بالقراءة المشهورة التى لم تتواتر كقراءة سعد بن أبى وقاص رضى الله حنه : (وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت « من أم ») .

الثالث : نسخهما معا (أى الحكم والتلاوة) ومثلوه بما ينقل عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان فيما أنزل عشر رضعات محرمات ثم نسخن بخمس » .

فعند مالك صدر الآية وهو « عشر » وآخرها وهو « خمس » منسوخ التلاوة والحكم ، أما صدر الآية عند الشافعى فمنسوخ الحكم ، وأما آخرها فمنسوخ التلاوة فقط ولكن الحكم باق . هذا نوع من تقسيم النسخ .

وهناك نوع آخر ينقسم النسخ فيه إلى :

١ ـ نسخ بلا بدل كنسخ تقديم الصدقة بين يدى مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ نسخ ببدل مساو : كنسخ استقبال بيت المقدس باستقبال الكعبة .

٣ ـ نسخ ببدل أخف : كنسخ عدة المتوفى عنها زوجها حولا بالعدة أربعة أشهر وعشرا .

٤ ـ نسخ ببدل أثقل : كنسخ إباحة الخمر بتحريمها .

٥ ـ نسخ التخيير بين الصوم والفدية بفرضية الصوم ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرًا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ﴾ ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان .

وهذا النوع الأخير منعه الظاهرية مستندين إلى قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ وإلى قوله تعالى ؛ ﴿ يريدالله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ فكيف يكون الأثقل والأشق على العبد خيرًا . هذا بزعمهم .

قلت : وكلامهم مردود بأن الخيرية إنما هى بالنظر لمصلحة العبد ، وقد

تكون فى الأشق الذى شرعه الحكيم العليم والثواب على قدر المشقة كما يقولون، وإذا كان الأمر كذلك كان تشريع الأثقل خيرا ، وكان تيسيرا من الله فيكون هذا النسخ جائزًا .

ومعرفة الناسخ والمنسوخ مما يظهر لنا حكمة البارى سبحانه وتربيته للخلق، وسياسته للبشر ، كما يدل دلالة واضحة على أن النبى صلى الله عليه وسلم نفسه لا يكون مصدرًا لمثل هذا القرآن بما منحه الله من الأمية المعجزة كما أنه لا يمكن أن يكون منبعا للتشريع ، وإنما هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

كما أن النسخ يدل على التدرج فى التشريع كمبدأ من المبادئ التى ساس الله بها الأمة الإسلامية ، وأصلح بها نظام الخلق . وفى التدرج فى تحريم الخمر أكبر مثل على ذلك .

ففى المرحلة الأولى يقول الحق سبحانه : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [١] .

وفى المرحلة الثانية إشارة بقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [٢] .

أما فى المرحلة الثالثة والأخيرة حرمها صراحة ودعا إلى اجتنابها فى قوله جل وعلا : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ [٣] .

---

(١) الآية ٢١٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٤٣ من سورة النساء .

(٣) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

إن هذا النوع من التربية الإلهية التدريجية يدل على أن الله إنما يريد الخير لعباده ، ويدعوهم إلى الدخول فى حظيرة قدسه ، والجلوس على بساط أنسه ؛ لتتم سعادتهم فى الدنيا والآخرة قال تعالى ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرًا عليماً ﴾ (١) .

تأمل معى أيها القارئ الكريم آية الخمر الأولى تجد أنها تهيئة لأذهان مدمنى الخمر ، وتمهيد لنفوسهم لتكون على استعداد لتقبل التحريم ، وفى الآية الثانية ما يدل على أن الخمر محرمة فى بعض الأوقات دون البعض ، وهذه الأوقات التى يحرم فيها الشرب هى أوقات الصلاة ؛ لأنه لا صلاة لسكران كما أنه لا صلاة لجنب حتى يتطهر ، ولذلك فإن هذه الآية قرنت السكران بالجنب؛ فكلاهما لا صلاة له حتى يفيق الأول ويتطهر الثانى . يقول الإمام الشافعى : « الصلاة قول وعمل وإمساك » (٢) .

ثم تلا هذه المرحلة الثالثة والأخيرة التى حرمت الخمر بأنواع من التأكيدات وقرنتها بالميسر والأنصاب والأزلام وسمت ذلك كله رجسا من عمل الشيطان فجاء الأمر الإلهى بالاجتناب التام ، وجعل ذلك سببا فى إدراك الفلاح الذى هو سبيل مرضاة الرب وطريق الجنة ثم بين بعد ذلك ما فى الخمر من المفاسد الدنيوية والدينية فقال : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ (٣) قالت السيدة عائشة رضى الله عنها فيما رواه البخارى فى حديث طويل : « . . . ولو نزل أول شىء : « لا تشربوا الخمر » لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل : «لا تزنوا » لقالوا : « لا ندع الزنا أبدا » (٤) .

---

(١) الآية ١٤٧ من سورة النساء .
(٢) راجع الرسالة ص ١٢٠ ، ١٢١ .
(٣) الآية ٩١ سورة المائدة .
(٤) راجع فتح البارى ١٠ / ٤١٥ باب تأليف القرآن .

ومن فوائد معرفة الناسخ والمنسوخ أيضا الاهتداء إلى صحيح الأحكام ؛ لأن هناك فى الكتاب والسنة ما ظاهره التعارض والتناقض ولا يندفع هذان الأمران إلا بمعرفة السابق واللاحق سواء من القرآن أم من السنة ولذلك قال الأئمة رضى الله عنهم : « ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف الناسخ من المنسوخ » .

ما المراد بالحكم الشرعى؟

المراد بالحكم الشرعى خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الاقتضاء أو التخيير أو المتعلق بالأعم من أفعال المكلفين على جهة الوضع .

والمقصود بخطاب الله كلامه النفسى المدلول عليه بالكلام اللفظى سواء كان قرآنا أو سنة أو إجماعا أو قياسا أو غير ذلك من سائر الأدلة ؛ لأنها معرفة لخطاب الله تعالى كاشفة عن أحكامه .

وأفعال المكلفين ما صدر منهم من قول أو فعل أو اعتقاد والمكلف هو البالغ العاقل الذى بلغته الدعوة على جهة الاقتضاء ، أى الطلب ؛ سواء كان طلب فعل فيكون أمرًا ، أو طلب ترك فيكون نهيا ، وسواء كان هذا الطلب جازما فيكون واجبا أو غير جازم فيكون مندوبا ، أو التخيير ، ومعنى التخيير التسوية بين الفعل والترك ؛ فشمل الاقتضاء والتخيير . الأحكام الخمسة وهى : الإيجاب والندب والتحريم والكراهة والإباحة .

هذا هو الحكم التكليفى الذى عرفناه بأنه خطاب الله المتعلق بفعل المكلف اقتضاء أوتخييرا . . وقد عرفت أن الاقتضاء هو الطلب وأقسامه أربعة :

فإن كان طلبا للفعل جازمًا فهو الإيجاب كأقيموا الصلاة وإن كان طلبا للفعل غير جازم فهو المندوب كقوله تعالى : ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا﴾ .

وإن كان طلبا للكف عن الفعل طلبا جازما فهو التحريم كقوله تعالى : ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ .

وإن كان طلبا للكف عن الفعل غير جازم فهو الكراهة كقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين » .

وإن كان الخطاب متعلقا بالفعل على جهة التخيير بين الفعل والترك فهو الإباحة أى أن المكلف مخير بأن يفعل أو لا يفعل كقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ (١) أى التجارة أثناء الحج وكقوله تعالى : ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ (٢) .

والأصل فى الأمور الإباحة ما لم يرد نص بتحريمها هذا ومن نظر فى كتب الفقه وجد أن أقسام الحكم تزيد عن هذه الخمسة فهناك غيرها ؛ سنة مؤكدة وسنة غير مؤكدة ورغيبة ومندوب ومستحب وتطوع ومكروه تحريما ومكروه تنزيها وخلاف الأولى .

والواقع أن هذه كلها لا تخرج عن الأقسام الخمسة السابقة ؛ لأن السنة المؤكدة وغير المؤكدة والمستحب والتطوع كلها من المندوب وهو الفعل المطلوب طلبا غير جازم ، كما أن المكروه تحريما وتنزيها وخلاف الأولى كلها من المكروه ، وللتفرقة بين هذه الحقائق وتسمية كل منها باسم يخصه إنما هو اصطلاح للفقهاء ولا شأن للأصوليين به .

الحكم الوضعى

هو خطاب الله تعالى المتعلق بجعل الشىء سببا أو شرطا أو مانعًا أو صحيحًا أو فاسدًا .

---

(١) البقرة : ١٩٨ .	(٢) النور : ٢٩ .

وأقسامه خمسة :

١ ـ السببية : وهى جعل الشىء واعتباره سببا كأن يجعل الشارع القرابة سببا للإرث ، ودخول الوقت سببا للصلاة والقتل العمد سببا لإيجاب القصاص والزنا سببا للحد والسرقة سببا للقطع .

٢ ـ الشرطية : وهى جعل الشىء واعتباره شرطا كجعل الشارع القدرة على تسليم المبيع شرطا فى صحة البيع والطهارة شرطا فى صحة الصلاة .

٣ ـ المانعية : وهى جعل الشىء واعتباره مانعا كجعل الشارع الحيض مانعا من وجوب الصلاة وصحتها ، والصوم وصحته وقتل الوارث مورثه مانعا من إرثه .

٤ ـ كون الشىء صحيحا : وهو اعتبار الشىء صحيحا إذا فُعل على النحو الذى أُمر به كاعتبار الصلاة صحيحة إذا أقيمت مستوفية الأركان والشروط .

٥ ـ كون الشىء فاسدًا , : وهو اعتبار الشارع الشىء فاسدًا إذا تم على صورة غير مشروعة كاعتبار الصلاة فاسدة إذا أتى بها الشخص غير مستوفية لجميع أركانها وشروطها .

ويكون الفعل صحيحا إذا وافق أمر الشارع ـ عبادة كان أو معاملة ـ على الوجه الذى طلبه الشارع بأن كان مستكملا شروطه وأركانه .

كما يكون فاسدا إذا لم يوافق أمر الشارع عبادة كان أو معاملة كأن اختل فيه ركن أو شرط .

ومن أمثلة العبادة والمعاملة فى الصحة والفساد يقال صوم صحيح وصلاة صحيحة كما يقال إجارة صحيحة وسلم صحيح كما يقال بيع فاسد وصلاة فاسدة .

أما الإجزاء فلا يوصف به إلا العبادة فقط فيقال : صوم مجزئ وصلاة مجزئة أى تكفى ولا يقال رهن مجزئ أى كاف .

جـــواز النســـخ ووقـوعـه

المسلمون على جواز النسخ عقلا ووقوعه شرعا لم يشذ عنهم إلا أبو مسلم الأصفهانى .

أما اليهود فقد افترقوا إلى فرق ثلاث :

الشمعونية الذين منعوا النسخ عقلا وسمعا ، والعنانية الذين أجازوه عقلا ومنعوه سمعا .

والعيسوية الذين أجازوه عقلا وسمعا ، ولكنهم منعوا أن تكون شريعتهم منسوخة بشريعتنا .

ويستند الجمهور فى جواز النسخ عقلا إلى أن أحكام الله إن كانت تابعة لمصلحة العبد ؛ فإن هذه المصلحة قد تتغير بتغير الأوقات كالدواء مثلا ينتفع به فى وقت ويضر فى وقت آخر ، وكالطعام ينفع عند الجوع ويضر عند الشبع فيجب على ذلك أن يتغير الحكم فيحسن الأمر به فى حال ، والنهى عنه فى حال آخر ، ولا محال فى ذلك عقلا لأنه تابع للمصلحة كما يتغير بتغير الأشخاص فقد يكون مصلحة لشخص مفسدة لشخص آخر .

كما يستندون فى الجواز شرعا إلى قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ [1] فإن هذه الآية صريحة فى جواز النسخ شرعا .

وبالنسبة لمن خالف من المسلمين كأبى مسلم فالأمر ظاهر لضرورة موافقته

---

(١) البقرة : ١٠٦ .

على أن الآية من كلام الله صدق ، وأن كلامه كله صدق باعتبار هؤلاء المخالفين مسلمين فيلزم التصديق بما جاء عن الله ورسوله . . وأما بالنسبة لليهود فإن الأدلة الدالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صدقه فيما يبلغه عن ربه تدل على صحة هذه الآية وعلى صحة الاحتجاج بها فى جواز النسخ .

أما وقوع النسخ فالدليل عليهم أن آدم كان مأمورا بتزويج الأخت للأخ من بطنين مختلفين تنزيلاً لاختلاف البطون منزلة اختلاف الأنساب ، وقد حرم الله ذلك باتفاق منا ومن اليهود ، وقد حرم الله عليهم السبت بعد أن لم يكن حراما ، وحرمت عليهم طيبات كانت حلالا لهم : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ [1] وقد جاء عيسى عليه السلام بحل بعض ما حرم عليهم ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ﴾ [2] .

ومما ينقل عن التوراة أن الله تعالى قال لنوح : « إنى جعلت كل دابة حية مأكلا لك ولذريتك وأطلقت ذلك كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه » ثم حرم منها على لسان موسى عليه السلام أشياء كثيرة .

فإن قيل إن أمر آدم والإباحة لذريته كان مقيدًا بظهور شريعة من بعده فتحريم ذلك على من بعده لا يكون نسخا قلنا : الأمر لآدم والإباحة لنوح كان مطلقا والأصل عدم التقييد ، وإن قيل إن ذلك كان مقيدًا فى علم الله بظهور شريعة أخرى قلنا : فذلك هو عين النسخ .

وأما المخالفون من المسلمين فيحتج عليهم بما ثبت أن الصحابة والسلف الصالح أجمعوا على نسخ وجوب التوجه لبيت المقدس باستقبال الكعبة ، وعلى نسخ الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث ، وعلى نسخ صوم يوم عاشوراء بصوم شهر رمضان .

---

(١) النساء : ١٦٠ .   (٢) آل عمران : ٥٠ .

نسخ الكتاب بالسُّنَّة

قال الإمام الشافعى فى رسالته : لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه ، وهكذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسخها إلا سنته . وهذا صريح فى أن الشافعى رضى الله عنه يرى أنه لا تنسخ السنة بالقرآن ، ولا ينسخ القرآن بالسنة .

ولنا أن نقول : السنة إما متواترة ، وإما آحاد والشافعى منع نسخ القرآن بكلتيهما .

أما الجمهور فقد أجازوا نسخ القرآن بالسنة المتواترة ومنعوه بالآحاد ، وأجازه آخرون .

ومن أدلة الجمهور على نسخ الكتاب بالسنة بأن الله سبحانه أوجب الوصية للوالدين والأقربين بقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾ [1] ثم نسخ الوجوب بقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا لا وصية لوارث » .

وبأن الله سبحانه جعل حد الزانية والزانى مائة جلدة وجعل هذا شاملا

---

(١) البقرة : ١٨٠ .

للبكر والمحصن أخذا من عموم الآية ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ [1] .

ثم نسخ ذلك بما ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم رجم الثيب والثيبة .

وقد عارض الشافعى الدليلين فقال : الحديث لم ينسخ الوصية لأن الخبر آحاد غير متواتر ، ثم إن ذلك معارض بما ثبت عن ابن عباس أنه قال : الذى نسخ آية الوصية هى آية المواريث وفى الزانية والزانى قال هذا من باب تخصيص العام ، وفرق بينه وبين النسخ ، ثم إن الناسخ قرآن نسخت تلاوته هو : «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة » فالناسخ هنا قرآن وليس مما نحن فيه .

ويستدل الإمام الشافعى لمذهبه بدليلين آخرين :

أحدهما : قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ يقول رضى الله عنه : أسند الله سبحانه الإتيان ببدل المنسوخ إلى نفسه وما يأتى به سبحانه هو القرآن ، فالذى ينسخ القرآن هو القرآن لا السنة ؛ لأنه جعل المأتى به بدلا خيرًا من المنسوخ أو مِثْلاً له . والسنة ليست خيرًا من القرآن ولا مثلا له فوضح أن السنة لا تنسخ القرآن .

والآخر : قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ [2] ودلالتها على المطلوب أن السنة جعلت بيانا للقرآن فلو كانت ناسخة له لم تكن بيانا له وإنما هى رافعة كما سبق فى تعريف النسخ .

---

(١) النور : الآية الثانية .

(٢) النحل : ٤٤ .

تعدّد الزوجات

التعدد فى الديانة اليهودية

أباحت الشريعة اليهودية تعدد الزوجات ، وسارت على نفس المنهج الذى سارت فيه الرسالات الإلهية قبلها .

ففى شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام كان التعدد مباحا وقد حدثتنا الكتب السماوية عن زوجتيه السيدة سارة والسيدة هاجر . وجاءت اليهودية فأباحت التعدد . وفى أخبار العهد القديم أن داود وسليمان عليهما السلام قد جمعا بين الزوجات الشرعيات وبين الإماء . وفى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الملوك الأول : أن الملك سليمان أحب نساء كثيرة غريبة ، وكانت له سبعمائة من النساء وثلاثمائة من السرارى » .

وفى الإصحاح الرابع والعشرين من السفر السابق :

« إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء ، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته . . إلخ

هذه هى التوراة فى حديثها عن الزوجات قد أباحت التعدد وأعطت الرجل الحرية فى الزواج والطلاق .

التعدد فى الديانة المسيحية

جاء فى الإصحاح الخامس من إنجيل متى : « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم : « إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى »[1] .

---

(١) إنجيل متى ص ٣٤ .

ومن رسالة بولس فى أعمال الرسل - إلى أهل تيموثاوس - الإصحاح الثالث: « صادقة هى الكلمة . . إن ابتغى أحد الأسقفية فيشتهى عملاً صالحا فيجب أن يكون الأسقف بعل امرأة واحدة صاحيا عاقلاً صالحًا للتعليم ، كذلك يجب أن يكون الشمامسة ذوى وقار غير مولعين بالخمر وليكن الشمامسة كل بعل امرأة واحدة »[1] .

لاحظ معى أيها القارئ الكريم فى هذا النص الأخير أنه يقصر الزواج بواحدة على طبقة معينة ؛ الأساقفة والشمامسة وهم رعاة الكنيسة وسدنتها والقائمون على أمر الدين فيها . وقد طلب إليهم ذلك حتى لا يشغلوا بأمور الأسرة ومهام الزواج ومسئوليته عن أمور الآخرة التى هى حياة الخلود والبقاء الأبدى فالمنع إذن ليس للتحريم ولا يفيد التعميم لقصره على فئة خاصة من رجال الدين ، ولكنه استحسان من بولس الرسول . وهذا يوضح وجود التعدد فى الديانة المسيحية ، وإلا لما كان لاستحسان بولس لهذا الفعل قيمة ولا معنى ، وكان عبثا من القول ولغوا ، كما أنه يعد استثناء من قاعدة التعدد الذى لم تتعرض فيه الأناجيل كلها لمنعه . . والسكوت عن الشىء إقرار به . . وقد جاء التعدد فى العهد القديم ولم يعارضه العهد الجديد ، فكان إقرارا منه بالتعدد .

وقد بقى تعدد الزوجات مباحا فى العالم المسيحى إلى القرن السادس عشر وظلت الكنيسة معترفة به حتى القرن السابع عشر .

يقول بعض المغالين والمتعصبين للمسيحية : « إن المسيح يهمه أن ترجع الأمور إلى وضعها الصحيح سواء كان ذلك الوضع فى البداية أو النهاية . .

نقول له : وقولك هذا دليل على صحة ما قلناه من أن زواج الأخت بأخيها كان جائزًا فى البداية بين أبناء آدم وحواء فهل يزعم أحد أن المسيح يريد أن

---

(١) أعمال الرسل ص ٢٤٠ .

يرجع إلى الوراء فيبيح زواج الأخت بأخيها بعد التحريم . معاذ الله أن يقول أحد بهذا وإلا كان طعنا على المسيح فهذا القول منك عليك لا لك .

كما أن ما جاء على لسان المسيح : « من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها ، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزنى » .

هذا النص مختلف فيه بين الكاثوليك الذى لا يبيحون الطلاق مهما كانت الأسباب وبين الأرثوذكس والبروتستانت حيث إن هاتين الطائفتين فهمتا من النص تبغيض الطلاق لا تحريمه فإن الزواج الثانى عندهم ليس زنا ما دام الطلاق قد وقع موافقا للأسباب المبيحة له .

ويقولون : « إن الكنيسة لا تعرف غير المسيح عريسا » أقول : هذا القول فى الواقع تشبيه للمرأة بالكنيسة فهى مقصورة على زوجها فقط لا تشرك معه غيره فى معاشرتها له أما المسيح المشبه بالعريس فله أن يدخل الكنائس كلها والكنائس متعددة فيكون تعدد الزوجات مباحا بهذا التشبيه الواقع من قائليه .

وأخيراً فإن النصوص اليهودية والمسيحية لا تمنع تعدد الزوجات كما أنها تبيح الطلاق وإن تضاربت فى بعض النصوص كتحريم الختان بعد وقوعه لخليل الله إبراهيم ، كما أنها تبيح بعض المحرمات من المطعومات والمشروبات ، وليس فى نصوصها ما يحدد المواريث ، بعد أن أنكرت ما جاء بالعهد القديم فاستحقوا أن يوصفوا بقول الله تعالى : ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾[1] .

كما أن الأخ يتزوج أرملة أخيه وإلا بصقت فى وجهه وخلعت حذاءه ، وسمى أمام اليهود مخلوع الحذاء (أى حافٍ) !

---

(١) البقرة : ١١٣ .

التَّعَدُّدُ فى الإسْلامِ

وإذا كانت الأديان تبيح التعدد كما رأينا من النصوص ؛ فلماذا ينعون هذا التعدد على المسلمين ، ولو علموا ما فى التعدد من فوائد لبادروا بالأخذ به ، وإليك بعض أسبابه .

١ ـ رعاية مال اليتامى : قال تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . . . ﴾ [(١)].

٢ ـ سوء سلوك المرأة : والنصوص المسيحية متفقة معنا فى هذا المبدأ مما يضطرنا للبحث عن أخرى .

٣ ـ العقـم : حيث لا يتحقق التناسل وهو من المقاصد الرئيسية للزواج .

٤ ـ وقد يطرأ العجز على المرأة بسبب داء عضال يشل حركتها عن القيام بمتطلبات الحياة الزوجية .

٥ ـ وقد يكون للزوجة قريبة ذات صبية لا يمكن أن يرعاها غيره فيكون ضمها إلى أسرته خير من التردد عليها بدافع الإحسان أو الصدقة .

٦ ـ وقد يزيد عدد النساء على عدد الرجال فى أعقاب الحروب التى تفرضها

---

(١) النساء : ٣

الظروف على المجتمعات ؛ فالتعدد هذا أفضل من ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

ومع ذلك فإن قيود التعدد فى الإسلام تكاد تقصر الرجل على امرأة واحدة ، والنصوص كثيرة فى الدعوة إلى إقامة العدل بينهن مع صعوبة تنفيذه .

كما أن القسم بين الزوجات فى الحضر ، وإجراء القرعة بينهن فى السفر ، والنفقة على كل واحدة منهن وسكناها حسب بيئتها ومكانتها الاجتماعية فهى أمور تكفل بها الفقه الإسلامى فارجع إليه إن شئت .

وخلاصة القول فى قضية التعدد أن الإسلام لم يمنع الاكتفاء بزوجة واحدة ؛ بل استحسن وحض عليه ، كما أنه لم يوجب تعددًا بل أباحه بشروطه والتزاماته ، وكذلك الديانات السابقة لا تحرم التعدد كما يتوهم المتعجلون منهم والجاهلون .

وقد فطن إلى قيمة التعدد بعض كبار المصلحين فى الغرب فها هو العالم الألمانى « فون أهرملس » يصرح بأن قاعدة تعدد الزوجات لازمة أو ضرورية لبقاء السلالات الآرية ونموها . وإليك ما كتبته صحف لندن سنة ١٩٠١ من المقالات المتعددة للإصلاح الاجتماعى وتعدد الزوجات وخلاصتها : لابد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة إن عدد الأولاد غير الشرعيين من الرجال المتزوجين بواحدة أصبحوا كَلاًّ وعالة وعارا على المجتمع الإنسانى ؛ فلو كان تعدد الزوجات مباحا لما حاق بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما هم فيه من العذاب والهوان . . . وبإباحة التعدد تصبح كل امرأة ربة بيت وأم أولاد شرعيين .

وتقول الكاتبة الشهيرة (اللادى كوك) فى مقالة لها بجريدة « الإيكو » ما خلاصته : « إن الاختلاط يألفه الرجال ، ولهذا طمعت المرأة فيما يخالف

فطرتها، وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا ؛ فالرجل يقضى حاجته ثم يترك فريسته تتقلب على فراش الفقر والعناء وتذوق مرارة الذل والهوان والاضطهاد بل والموت أيضًا ، وكثيرا ما يكون هذا الموت بالانتحار وغيره .

تلك هى دعوات بعض كبار المصلحين إلى التعدد فى العصر الحديث وقد سبقهم الإسلام إلى ذلك منذ خمسة عشر قرنا . . ليتضح لك حضارة الإسلام ومدنيته . . ولا ينقص أهله إلا التمسك به والعودة إلى مبادئه ليسودوا العالم اليوم كما قادوه بالأمس . . ولتتحقق لهم الخيرية التى وسمهم بها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

مُعجزة القرآن الخالدة

« المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بدعوى التحدى مع عدم المعارضة » .

والمعجزة من الإعجاز ، وهو إثبات العجز فى الآخرين ، وإظهار ذلك فيهم مع عدم قدرتهم على معارضة تلك المعجزة التى تحداهم بها صاحب الرسالة ووقوفهم أمامها مشدوهين مُسَلّمين بها أو معترضين عليها وذلك أمر تتفاوت فيه العقول ، وتحار فيه الأفهام ، وتظهر قيمة التحدى إذا كان فى أمر يحسنه المقصودون بهذا التحدى ، ولهم فيه باع طويل من النبوغ والعبقرية .

ولذلك ترى ـ أيها القارئ الكريم ـ أن معجزة كل نبى أتت فيما نبغ فيه قومه وأمته واشتهروا به بين الأمم الأخرى حتى صار هذا الفن سمة لهم وعلامة على علو أقدارهم فيه فارتبطت عقائدهم بما جادت به قرائحهم ، وتفوقت فيه عقولهم . . فكانت معجزة إبراهيم عليه السلام متعلقة بالكواكب والنجوم لتفوق قومه فى علم الفلك والتنجيم ، وجاء موسى عليه السلام بإبطال السحر مستعملا العصا التى التهمت حياتهم وثعابينهم ، وتحدت قدراتهم الخارقة ؛ فعلموا أن هذه القدرة ليست من جنس قدراتهم فخروا لله ساجدين .

وجاء عيسى عليه السلام يحمل بين طياته قدرات طبية خارقة تبرئ الأكمه والأبرص وتحيى الموتى بإذن الله ، ومعجزات نبوية تنبئهم بما يأكلون وما

يدخرون فى بيوتهم ، وبشارة سماوية تخبرهم بنبى يأتى من بعده اسمه أحمد . . ووقفوا أمام هذه القدرات مشدوهين . . وكيف لا يتحيرون وهم أساطين الطب وحماة البشرية من العلل والآفات .

إن الذى جاء به هذا الفتى الإسرائيلى ليس من لون طبهم ولا طعمه ولا رائحته . . إن طبهم قائم على العلم التجريبى ، وطب عيسى قائم على قوى خفية تتحدى سائر المعارف والعلوم ولما نظروا فى بدايته علموا أن بدايته كبشر ليس من نوع بداية البشرية ، فقد علموا أن آدم وحواء كان لهم مثل بداية عيسى عن طريق الكتب والأخبار ، ولكنهم عاينوا بداية عيسى بولادته من غير أب فكان ذلك خرقا لنواميس الكون من وجود الابن من أب وأم . . وعندما وقفوا أمام هذا المشهد الكونى الرائع لم يملكوا إلا التسليم بقدرة الله . . ثم لم يلبث هذا المعلم فى الأرض حتى فاجأهم بنهاية كانت أشد عليهم من البداية . . فظن بعضهم أنه قد صلب ، وتأكد البعض الآخر بأنه قد رفع . . وتشكك كثيرون فى خروجه للحياة مرة ثانية بعد المهات . . وكانت فتنة . . آمن فى ظلها من آمن وكفر من كفر ، وما زال الناس إلى يومنا هذا فى انتظار معجزة تعيد المسيح إلى الدنيا . . وتكون علامة من علامات الساعة الكبرى ، فينزل فى الناس حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ؛ ويقضى على الدجال ، ويحكم بالشريعة الإسلامية لا بصفته نبيا ، فقد تمت رسالته برفعه ولكن باعتباره واحدًا من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يجدد فيهم الإسلام ويعمق فيهم الإيمان . . ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا ﴾ [1] .

أما معجزة هذا النبى الخاتم ، والرسول الحاكم ، والمبعوث للعالم فقد

---

(١) النساء : ١٥٩ .

كانت معجزته هى نفس منهجه لا يفترقان ؛ فالمنهج حارس أمين على المعجزة ، والمعجزة داخلة فى إطار المنهج . هذه المعجزة الفعلية نزلت على ملوك الفصاحة والبيان ، وأباطرة الشعر والنثر فى كل زمان ومكان ، وخبراء القيافة والعيافة والعرافة والكهانة والفراسة فى بنى الإنسان ، وأبطال الفروسية ، وفرسان الحروب فى كل ميدان ـ يملكون من الحضارات أعرقها ، ومن الثقافات أضوأها وأشرقها . . وليس ذلك بدعا من القول فإن معجزة القرآن التى نزلت بمختلف الفنون سبقتها معجزات من جنس من نزلت عليهم فى الأمم السابقة .

يقول الدكتور ناصر الدين الأسد : « إن العرب كانوا يكتبون فى جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذى عرفه بعد ذلك المسلمون » [1] .

ومع هذه المهارة فى الكتابة جاءهم النبى الأمى بكتابة المصحف على غير ما ألفوه من الكتابة ليبين لهم الإعجاز فى كتابته كما أعجزهم ببلاغته وفصاحته .

فرسم لهم بعض الكلمات بحروف زائدة ليبين لهم أن زيادة المبنى فى الكلمة تدل على زيادة المعنى فيها ومن ذلك مثلا : زيادة الحرف « لا » وهى للنفى فى القسم الذى يراد به الإثبات لإفادة أن المقسم عليه بلغ من قوة ثبوته درجة لا يحتاج منها إلى إثبات فيكون قوله تعالى : (لا أقسم) فى بعض الآيات للدلالة على ذلك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ فى سورة الأعراف ؛ فزيادة الحرف « ما » دلت على أن القلة فى الذكر والشكر قريبة من العدم حتى لا يكاد يذكر الذكر والشكر .

---

(١) انظر كتابة القرآن الكريم للدكتور حمودة محمد داود الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة .

كما جاء فى سورة الأعراف أيضا الحرف « لا » زائدًا فى قوله تعالى لإبليس : ﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ وفى سورة صٓ : (ما منعك أن تسجد) بدون « لا » فعدم وجوده فى سورة صٓ دل على امتناع السجود من جهة المعنى ، وفى سورة الأعراف دلت زيادة الحرف « لا » على الامتناع معنويًا وماديًا أى بطريق الخط المصحفى ليصير امتناع إبليس أمام شاهدى عدل وهما : المعنى والكتابة وقد قيل : « شاهداك قاتلاك » .

وفى سورة الكهف : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ وفى الآية الأخرى من نفس السورة : ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ .

الآية الأولى بالتاء ، والثانية بحذفها ؛ فالأولى فيها بعض الثقل على اللسان لتصوير الحالة النفسية التى كان عليها موسى عليه السلام قبل معرفته تأويل ما فعله العبد الصالح وهو الخضر عليه السلام ؛ فلما علم تأويل الثلاثة : خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، وزال ما بنفسه من اللبس والغموض جاء التعبير فى الآية الثانية بدون التاء (تسطع) فعبر اللفظ عن سرور موسى واغتباطه بحالة الوضوح بعد ضيقه بحالة الغموض . وهذا من إعجاز الإيجاز . والأمثلة على ذلك كثيرة [١].

(١) المرجع السابق .

تفاسير الفرق المختلفة

وإذا يممت وجهك شطر التفاسير القرآنية ظهرت لك مذاهب متعددة ، ومناهج مغرضة ، ومشارب مفندة فتقرأ عقيدة أهل السنة والجماعة من خلال تفاسير أهل السنة وتطلع على آراء المعتزلة من خلال ما كتبوه فى تفسيراتهم وتقع على معتقدات الشيعة المتطرفين من بطون أمهات كتبهم .

فمن كتب أهل السنة والجماعة كتاب قيم يكاد يكون أعظم التفاسير انتشارًا لاختصار عبارته وسهولتها . هذا الكتاب هو تفسير « الجلالين » الجلال السيوطى والجلال المحلى رضى الله عنهما .

وأما تفسير البيضاوى فهو كتاب جليل دقيق يجمع لك بين التفسير المأثور والتأويل القائم على قانون اللغة العربية كما يقرر لك الأدلة على أصول أهل السنة . . ويختم لك كل سورة بما يروى فى فضلها من الأحاديث النبوية الشريفة .

وهناك تفسير يستهويك حسن تعبيره ، ويروقك سلامة تفكيره . . يجلّى لك بلاغة القرآن ويوقفك على أسرار الإعجاز بعيدًا عن الحشو والتطويل . إنه تفسير أبى السعود .

وأما تفسير النسفى فلندع القول لصاحب كشف الظنون يقول : هو كتاب

وسط فى التأويلات ، جامع لوجوه الإعراب والقراءات متضمن لدقائق البديع والإشارات ، مرشح لأقاويل أهل السنة والجماعة ، خال من أباطيل أهل البدع والضلالة ، ليس بالطويل الممل ، ولا القصير المخل أ هـ [1].

وأما تفسير الخطيب فهو كتاب عظيم يعنى بثلاثة أشياء : تقرير الأدلة وتوجيهها ، والكلام على المناسبات بين السور والآيات ، وسرد كثير من القصص والروايات .

وأما تفسير الخازن فهو تفسير مشهور يعنى بالمأثور ولا يهتم بالسند ؛ يتوسع فى القصص والروايات ؛ لكنه يتبع القصة ببيان ما فيها من باطل حتى لا ينخدع بها غر ، ولا يغتر بها جاهل .

تفاسير متطرفة

المعتزلة

وإليك منها نموذجين : أحدهما لصاحب الكشاف : محمود الزمخشرى ، والآخر تنزيه القرآن عن المطاعن لشيخ المعتزلة القاضى عبد الجبار .

أما الكشاف فيعد من خير الكتب إذا نظرنا إلى التفسير من الناحية البلاغية ، رغم نزعته الاعتزالية وتعد أغلب التفاسير التى جاءت بعده عيالا عليه وهو كتاب خال من الحشو والتطويل ، بعيد عن القصص الإسرائيلى يظهر لك المعانى على لغة العرب وأساليبهم ، لا يفوته تحقيق الإعجاز القرآنى من خلال ألوان البلاغة بفروعها من البيان والمعانى والبديع ، ويشوقك للقراءة ويجذب انتباهك بطريق السؤال والجواب ، لكنه يقرر فيه عقيدة القول بين

---

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة .

المنزلتين ، وبأن أفعال العباد مخلوقة ووجوب الصلاح والأصلح ، كما يقول باستحالة رؤية الله تعالى فى الدار الآخرة إلى غير ذلك مما يقول به شيوخه .

انظر إليه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ يقول : (فإن قلت) ما الإيمان الصحيح (قلتُ) : أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله . فمن أخل بالاعتقاد - وإن شهد وعمل - فهو منافق ، ومن أخل بالشهادة فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق .. أليس ذلك التفسير هو القول بالمنزلة بين المنزلتين ؟ وهى منزلة الفاسق بين المؤمن والكافر؟

وعند قوله : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يوجه تفسيره إلى أن الرزق الحلال من الله ، والرزق الحرام من العبد كما أنه يعرض بإنكار رؤية الله تعالى فى مثل قوله : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ فى سورة آل عمران كما يصرح بالإنكار فى سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ويخطئه التوفيق فى التفريق بين الرؤية والإدراك ويدور حول نفسه فى أن الأبصار تتعلق بما كان فى جهة أصالة أو تبعا وذلك كالأجسام والهيئات ، ويدعى أن الله تعالى منزه عن أن يبصره أحد ... ولو أنه تأمل وهو النحوى البلاغى الفعل « نظر » إذا تعدى بنفسه دل على التوقف والانتظار ... ﴿انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ [1].

وإذا تعدى بحرف الجر « فى » دل على التفكر والاعتبار ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ... ﴾ [2].

وإذا تعدى بحرف الجر « إلى » دل على الرؤية المباشرة ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [3].

---

(١) الحديد : ١٣ . (٢) الأعراف : ١٨٥ .

(٣) القيامة : ٢٢ ، ٢٣ .

تنزيه القرآن عن المطاعن

للقاضى عبد الجبار بن أحمد الخليل أبى الحسن البغدادى . انتهت إليه رياسة المعتزلة . توفى فى بداية القرن الخامس الهجرى .

وكتابه المذكور مرتب على مسائل تتضمن سؤالا وجوابه ولم تكن همته تفسير القرآن بقدر ما يهتم بتأييد مذهبه ولذلك لم يفسر القرآن كله بل يأتى بالآية من السورة التى تخدم عقيدته الاعتزالية . . ونحن لا نقول برد تراث أصبح من مقومات هذه الأمة . . والقاعدة العامة تقول : « أىَّ كتاب تقرأ تستفد » .

تفاسير الباطنية

وهؤلاء كما يدل عليهم العنوان يرفضون الأخذ بظاهر القرآن ويقولون : إن للقرآن ظاهرا وباطنا ويستدلون بالآية الكريمة : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ .

ومن هذه الفرق المغالية والمتطرفة :

القرامطة : نسبة إلى حمدان قرمط ، والإسماعيلية : نسبة إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق أو إلى محمد بن إسماعيل أو السبعية الذين يعتقدون أن فى كل سبعة من أهل البيت إما ما يقتدى به أو الحرمية الذين ينتهكون الحرمات

ومن تأويلاتهم الفاسدة يقولون فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ إن الإمام عليا ورث النبى فى علمه ويقولون : إن الكعبة هى النبى صلى الله عليه وسلم والباب علىّ والصفا هو النبى والمروة على ، ونار إبراهيم هى غضب النمرود عليه لا تلك النار التى أشعلها لاحراقه فالنار أمر معنوى لا حقيقى ، وعصا موسى هى حجته فى إقناع الأتباع لا تلك المذكورة بأنها معجزة خارقة تحولت إلى حية التهمت عصى سحرة فرعون إلى غير ذلك من الخرافات التى لا يقبلها عقل ولا يؤيدها نقل .

تفاسير الشيعة

طائفة كبيرة بالغت فى حب الإمام على وبنيه ، وأسرفوا فى اعتقادهم فيه فمنهم الغلاة وكثير منهم معتدلون ومن هذه التفاسير :

مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار .

أما صاحبه فهو المولى عبد اللطيف الكازلانى من النجف وهو تفسير يشتمل على تأويلات لا تختلف كثيرا عن تأويلات الباطنية ؛ فالأرض يفسرها بالدين تارة وبالأئمة تارة أخرى ، وبالقلوب أحيانا وبأخبار الأمم الماضية فعند قوله تعالى : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ [١] .

التفسير الإشارى

من أهم كتبه تفسير النيسابورى والألوسى والتسترى وابن عربى ولطائف الإشارات للقشيرى .

وهذا اللون من التفسير منعه قوم وأجازه آخرون ؛ لأنه لم يكن تفسيرا

---

(١) النساء : ٩٧ .

بالمعنى المتعارف عليه كما هو مواجيد ومعان تطرأ على القلوب المشغولة بذكر الله يجدونها عند التلاوة . أما المانعون فقد تعصبوا حتى كفروا بعضهم بهذه التأويلات ، وأما المجيزون فقد وضعوا شروطا للتفسير الإشارى المقبول منها :

- ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم القرآنى الكريم .
- ألا يُدّعى أن هذا هو المراد وحده دون الظاهر .
- ألا يكون تأويلا بعيدًا كقول بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ وإن الله لمع المحسنين﴾ لمع فعل ماض والمحسنين مفعولة .
- ألا يكون له معارض شرعى أو عقلى .
- أن يكون له شاهد شرعى يؤيده .

تفاسير عصرية

ثم ظهرت مدارس فى عصرنا الحديث بعضها معتدل وأكثرها متطرف لعدم توفر شروط المفسر فيهم . وقبل أن أوضح الشروط التى وضعها العلماء فيمن يصلح لتناول هذا الكتاب الكريم بالتفسير أحب أن أنوه بفضل بعض المحدثين الذين كان لهم فضل كبير فى تنقية التفاسير المتقدمة من الإسرائيليات والتصدى للدخلاء على الفكر الإسلامى وضربه فى أقدس مقدساته ومن هؤلاء الفضلاء الإمام محمد عبده الذى أدرك أن أمضى سلاح للإسلام هو القرآن العظيم فلابد من تناوله بالشرح النظيف والتفسير النقى وجلائه من صدأ بدع التفسير وجموده ؛ فإن عصر العلم الذى غزا العقول فى العصر الحديث يحتاج إلى نظرة موضوعية جديدة لهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فلا مانع من تجلية أسراره بالأساليب الأدبية والتحليل الفلسفى دونما غلو أو تفريط بل يكون بين ذلك قواما . وإذا أردت أن تعرف منهج هذا الإمام الثائر المجدد فعليك بتفسير جزء عم وهو الجزء الأخير من القرآن الكريم وفى سورة الفلق من هذا التفسير أيها القارئ الكريم ما يشفى غليلك نحو قضايا السحر والنفاثات فى العقد وتأثير السحر فى النبى صلى الله عليه وسلم وهل أثر فى بدنه أو فى عقله . . وأقوال أهل البدع فى ذلك .

ولا يفوتك الاطلاع على تفسير الجواهر الذى ألفه المغفور له الشيخ

طنطاوى جوهرى الذى كان مغرما بتفسير القرآن على نمط علمى لم يسبقه إليه مثله ولم يقلده فيه أحد ، وكان تفسيره هذا قاصرا على طلبة دار العلوم أيام تدريسه بها ، وكان هذا التفسير يتجه إلى التعرف على العلوم الكونية ودراسة العوالم العلوية والسفلية والبحث فى شئون الزراعة والطب والمعادن والحساب والهندسة وغيرها من العلوم والصناعات كما يقول فى مقدمة كتابه رحمه اللهوكان يقول ما خلاصته : إن هذه العلوم التى أدخلناها فى التفسير مما أغفله صغار الفقهاء فى الإسلام مما يجعلنا فى حاجة إلى إعادة لتقييم هذه التفسيرات القديمة، لأن القدامى وإن كانوا قد برعوا فى الفقه فقد فاتهم النظر فى علوم الكون ليعطونا فرصة للبراعة فى علم الكائنات حتى ترقى الأمة . وكم ترك الأوائل للأواخر .

أما شيخ الإسلام محمد مصطفى المراغى فقد وضع نماذج طيبة للتفسير حرية وجديرة أن ينهج نهجها وينسج على منوالها المفسرون . . كانت دروسا عامرة بطبقات المجتمع المختلفة وعلى رأسهم ملك البلاد الذى كان لا يفوته تلك الدروس . . ثم طبعت هذه الدروس وصارت قدوة لمن يريد أن يدعو إلى الله على بصيرة فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

وأختم هذه التفاسير بكتاب تولت طبعه وإخراجه دار الشروق لمفسر عصرى يعد بحق من أئمة الاجتهاد وأقطاب المفسرين هذا الكتاب هو (فى ظلال القرآن) لشهيد الإسلام سيد قطب . . ذلك العالم الأديب الذى ترك بصمة فى العالم العربى والإسلامى لن تمحوها الأيام . . وسيظل منهجه نبراسا لكل باحث عن الحق من خلال آرائه وكتبه وتفسيراته ومقالاته ولا أستطيع أن أقول إن الرجل عاش حميدا فقد لقى من العنت الكثيرة بسبب صراحته فى القول وجرأته فى الحق ولكن أملأ فمى بالقول بأن الرجل مات شهيدًا . . طيب الله ثراه وجعل الجنة منقلبه ومثواه .

وسأستعير تقديم كتابه من أخيه محمد قطب الذى قال : الكتاب الذى عاشه صاحبه بروحه وفكره وشعوره وكيانه كله عاشه لحظة ولفظة لفظة وفكرة فكرة وأودعه خلاصة تجربته الحية فى عالم الإيمان .

لقد آن له أن يأخذ وضعه الطبيعى فى يد ناشر أمين يقدر أنه ناشر فكر قبل أن يكون جامع مال . . .

إن هذه الكلمات من التقديم قد وافقت هوى فى نفسى وتلاقت مع ما يجيش به صدرى نحو المؤلف والناشر رحم الله المؤلف ومد فى عمر الناشر وذريته وجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

المنهج القويم
فى تفسير القرآن الكريم

على من يفسر كتاب الله تعالى أن يبحث عن تفسيره فى القرآن فإنه يفسر بعضه بعضا فإن لم يجد فليطلبه فى مظانه فى كتب السنة الصحيحة لأن السنة إنما جاءت مفسرة لما استعجم على أفهام الناس موضحة لما أبهم مبينة لما استغلق ، فإن تعسر عليه ذلك بحث فى أقوال الصحابة والتابعين فإن لم يجد فليجتهد رأيه ولا يألو ـ أى لا يقصر إذا كان مستكملاً لأدوات الاجتهاد مع مراعاة القواعد الآتية :

١ ـ العناية بأسباب النزول لأنها تعين على فهم المراد من الآية .

٢ ـ ذكر المناسبات بين الآيات لأن فى ذلك إفصاح عن أخص خصائص القرآن الكريم وهى الإعجاز .

٣ ـ مراعاة السياق والسباق .

٤ ـ التجرد من الميل والهوى حتى لا يحمله ذلك على تفسيرالقرآن حسب رأيه ومذهبه .

٥ ـ مراعاة المعانى الحقيقية والمجازية .

٦ ـ تقديم الحقيقة الشرعية والعرفية على الحقيقة اللغوية .

٧ ـ مراعاة الفروق الدقيقة بين الألفاظ .

٨ ـ البدء فى التفسير بما يتعلق بالمفردات وتحقيق معانيها والكلام عليها بحسب التركيب فيبدأ بالإعراب إن كان خفيا ثم ما يتعلق بالمعانى ثم البيان ثم البديع وهى العلوم البلاغية . . ثم يستنبط المعنى المراد من الآيات من الأحكام والآداب مع الاقتصاد فى ذلك كله حتى لا يخرج عن قضية التفسير كما بينا آنفا .

٩ ـ البعد عن ذكرالأحاديث والآثار الضعيفة فضلاً عن الموضوعة ، وكذا الروايات المدسوسة .

١٠ـ العلم بالناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والعام والخاص والمحكم والمتشابه وغير ذلك مما يجعله جديرًا بوضعه فى قائمة المفسرين الذين هداهم الله فبهداهم اقتده .

تفسير ابن عباس

كان ابن عباس من أعلم الصحابة بتفسير القرآن ، قال فيه ابن مسعود : «نعم ترجمان القرآن : ابن عباس » وكانت له مدرسة لها سماتها وخصائصها وأصحاب يقومون بعلمه ويقولون بقوله . ونشروا علمه على أوسع ما يكون النشر قال الأعمش : استخلف الإمام علىّ عبد الله ابن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ فى خطبته سورة البقرة وفى رواية : سورة النور ، ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا [١] .

وقد ورد عن ابن عباس فى تفسير القرآن ما لا يحصى كثرة ، ورويت عنه من طرق كثيرة ، وفيها الصحيح والحسن والضعيف ، بل والموضوع شىء كثير. وأما التفسير المطبوع المنسوب إليه ففى صحة نسبته إليه شك كثير !

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية .

تفسير ابن جرير الطبري

من أجل التفاسير بالمأثور ، وأعظمها قدرًا ، ذكر فيه ما روى فى التفسير عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين وأتباعهم ، وقد كانت التفاسير قبل ابن جرير لا تذكر إلا الروايات دون التعليق عليها أو المساس بها ، حتى جاء ابن جرير فزاد على الروايات توجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض ، وذكر أوجه الإعراب واستشهد بأشعار العرب على معانى الألفاظ . وقد أثنى على هذا التفسير الإمام النووى فقال فى تهذيبه : « . . . وكتاب ابن جرير لم يصنف أحد مثله » وقال ابن تيمية : « هو من أجل التفاسير وأعظمها قدرًا »[1] .

قلت : والمأخوذ عليه : أنه يذكر الروايات من غير بيان وتمحيص ، فلا تمييز لصحيحها من ضعيفها بل هناك الروايات الواهية والمنكرة والإسرائيليات . وفى قصص الأنبياء وقصة زواج السيدة زينب بنت جحش من النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسير ابن جرير ما يزعج القارئ المؤمن ويجعله يجزم ببطلان أمثال هذه التخاريف والتحاريف .

---

(١) الإتقان للسيوطى حـ ٢ / ١٧٨ ، ١٩٠ .

تفسير ابن كثير

ومؤلفه هو الحافظ أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشى ، من أخلص تلاميذ ابن تيمية ، ومن أكثر الناس افتتانا بحبه وأشدهم اتباعا له ، أخذ عنه الكثير من آرائه الفقهية والتفسيرية حتى كان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد . ولابن كثير كتاب البداية والنهاية ، أما البداية ففى التاريخ وقد تناول فيه من المسائل التاريخية ما يجعله من صدور المؤرخين ، وأما النهاية ففى الحديث وقد كتب فيه من الروايات التى كان يمليها على تلاميذه ويكتبها من ذاكرته ما يجعله على رأس قائمة المحدثين ، ويكفيه من ثناء أهل الحديث عليه ما أطلقوه بأنه الحافظ المفتى المحدث البارع الفقيه المتفنن المفسر العظيم لكتابه المسمى « تفسير القرآن العظيم » نبه فيه على الإسرائيليات والموضوعات فى التفسير ، وحذر منها ، وقد دان له بهذا الفضل كثير من المفسرين من أمثال الألوسى ومحمد عبده ورشيد رضا رحمهم الله تعالى .

تفسير الرازى
مفاتيح الغيب

للإمام فخر الدين محمد بن العلامة ضياء الدين عمر الرازى ، ولد فى أواخر القرن السادس الهجرى بمدينة الرى وإليها نسب وهى مدينة قرب طهران عاصمة إيران كان عالما بالأصلين : الكتاب والسنة وكان من كبار علماء الكلام ، سلك فى تفسيره مسلك الحكماء الإلهيين ، فصاغ أدلته فى مباحث الإلهيات[1] على نمط استدلالاتهم العقلية ، ولكن مع تهذيبها بما يوافق أصول أهل السنة والجماعة ، وتعرض لآراء هؤلاء الفلاسفة فى قولهم بقدم العالم وإنكار البعث بالجسد وغير ذلك ، وفند شبههم ونقضها فى مواضع شتى من كتابه ، ويكاد هذاالكتاب أن يخلو من الإسرائيليات ، فإن ذكرها فبقصد إبطالها . وقد أراد بمنهجه ذلك أن يبين تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفلسفية وانفراد القرآن بهداية العقول البشرية .

---

(١) الإلهيات : الأمور التى تتعلق بذات الإله سبحانه وتعالى وصفاته ، كما أن النبوات هى الأمور التى تتعلق بذوات الأنبياء وعصمتهم وسبب إرسالهم وغير ذلك . وأما السمعيات فهى التى تتعلق بالأمور الغيبية كالجنة والنار وعذاب القبر أ هـ .

تفسير القرطبى

لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرْح الأنصارى الخزرجى الأندلسى القرطبى المفسر . يعد تفسيره من أجل التفاسير وأعظمها نفعا . أسقط منه القصص والتواريخ ، وذكر عوضا عنها أحكام القرآن بتوسع حتى حاف بها على التفسير ، ومن محاسن هذا الكتاب الجليل تخريج الأحاديث وعزوها إلى الأئمة من الرواة مبتعدًا عن الإسرائيليات والموضوعات التى تخل بعصمة الملائكة والأنبياء أو يخل بالاعتقاد فإن تعرض إليها أبطلها ودحض شبهها بصائب الرأى ونور البصيرة ، غير أنه لم يسلم كغيره ممن سبقوه من بعض الإسرائيليات التى لا تصح ، فى مثل قصة ذى القرنين أو عند قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ولى وقفة عند هذه الآية أحب ألا تفوت القارئ الكريم وهى أن فى عرض الآية تقديم وتأخير « ولقد همت به . . ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها » وقد رأى برهان ربه أولا فاستحال أن يهم بها ومن المعلوم أن « لولا » عند النحويين حرف امتناع لوجود فمتى وجد البرهان امتنع الهم . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إذا سلمنا بالهم فقد همت به تطلب الفاحشة وهم بها ليضربها حتى تكف عن طلبها . . ولو أنه ضرب الملكة وهو فى بيتها للحقه السوء بسبب إهانته لها . . وبما أن الضمير فى اللغة يعود على أقرب مذكور فقد قال الله تعالى : ﴿ كذلك

لنصرف عنه السوء ﴾ ويتفضل الحق سبحانه بصرف الفحشاء عنها ببركة نبيه وحبيبه يوسف عليه السلام .. فكأنه سبحانه وتعالى : قال : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء وعنها نصرف الفحشاء ولما كان تكرار حرف الجر « عن » هنا لا يعد قولا بليغًا فقد اكتفى سبحانه بذكر الأول واستغنى عن الثانى لأن القاعدة تقول : حذف ما يعلم جائز .. وفى القصة خط درامى غير متناقض.. ونحن نعيب على كاتب القصة إن تناقض فى خطه الدرامى ويكون ذلك من أسباب ضعف الكاتب .. وهو المخلوق فهل يتناقض الخالق واهب العقول سبحانه مع خطه الدرامى فى رواية هذه القصة وأمثالها فى القرآن الكريم وهو الذى صدر هذه السورة بقوله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) وإليك نموذجا من الخط الدرامى المستقيم فى هذه القصة :

زليخـــا : هيت لك .

يوسف : معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون .

زليخـــا : همت به (فاحشة) .

يوسف : هم بها (ليمنعها من هذا الطلب) ليحقق قوله : معاذ الله .

زليخـــا : قَدّت القميص .

يوسف : قد قميصه من دبر وهو دليل على الهروب لا على الإقدام على منكر الفعل .

(ويدخل العزيز وبعض أهلها ويفتى)

الشاهد : إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين .

العزيز : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .

(ويستمر العزيز فى الحديث)

يوسف : أعرض عن هذا

(ثم يوجه الكلام لزوجته)

واستغفرى لذنبك إن كنت من الخاطئين

ألسنة الخلق أقلام الحق

« ويشيع هذا الأمر بين بنات جنسها »

وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسها قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين .

اختبار صعب

يوسف : رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه .

شهــادة

النساء : (ما علمنا عليه من سوء) والمحذوف : فكيف تصدر منه الفحشاء؟

الاعتراف سيد الأدلة

زليخـا : الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء . . إلا ما رحم ربى .

اَلْ : فى النفس هل هى لاستغراق الجنس أى جميع النفوس البشرية أو للعهد أى هذه النفس المعهودة الخاصة بالسيدة زليخا . . الواقع أن السياق القرآنى والسباق لهذه الآية يفيد أنها للعهد ، وإن كان ذلك لا يمنع من استغراقها لجنس النفوس البشرية . . تسألنى ولماذا لا يكون القول :

(وما أبرئ نفسى على لسان يوسف وليس على لسان زليخا ؟ أقول لك : لأنها فى معرض سرد القضية والاعتراف بخطيئتها . . أما نفس يوسف فهى نفس صديقية بدليل مخاطبة الله تعالى إياه : (يوسف أيها الصديق) .

وشتان بين النفس الأمارة التى من أفرادها زليخا والنفس الصديقية التى من أفرادها يوسف عليه السلام وما دمنا قد تعرضنا لذكر النفس البشرية فإليك ما ذكره صاحب تنوير القلوب فى معاملة علام الغيوب العارف الكردى رضى الله تعالى عنه . . قال :

وللنفس باعتبار تأثرها بالمجاهدات سبع مراتب :

الأولى : النفس الأمارة : وهى التى تميل إلى الطبيعة الدنية وتأمر باللذات والشهوات الممنوعة شرعا وتجذب القلب إلى الجهة السفلية فهى مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة كالكبر والحرص والشهوة والحسد والغضب والبخل والحقد .

الثانية : النفس اللوامة : وهى التى تنورت بنور القلب فتطيع القوة العاقلة تارة وتعصى أخرى ثم تندم فتلوم نفسها وهى منبع الندامة لأنها مبدأ الهوى والعثرة والحرص .

الثالثة : النفس المطمئنة : وهى التى تنورت بنور القلب حتى تخلت عن صفتها الذميمة واطمأنت إلى الكمالات ومقامها مبدأ الكمال متى وضع السالك قدمه فيه عدّ من أهل الطريق لانتقاله من التلوين إلى التمكين وصاحب سكرات هبت عليه نسمات الوصال يخاطب الناس وهو عنهم فى بعد من شدة تعلقه بالحق تعالى .

الرابعة : النفس الملهمة : وهى التى ألهمها الله التواضع والقناعة والعلم والسخاوة فلذا كانت منبع الصبر والتحمل والشكر .

الخامسة : النفس الراضية : وهى التى رضيت عن الله تعالى كما قال : (ورضوا عنه) وشأنها التسليم .

السادسة : النفس المرضية : وهى التى رضى الله عنها ويظهر فيها أثر رضاه تعالى وهو الكرامة والإخلاص والذكر ، وفى هذه المرتبة يضع السالك [إلى الله تعالى] القدم الأول فى معرفته سبحانه حق المعرفة وفيها يظهر تجلى الأفعال .

السابعة : النفس الكاملة : وهى التى صارت الكمالات لها طبعا وسجية ومع ذلك تترقى فى الكمال وتؤمر بالرجوع إلى العباد لإرشادهم وتكميلهم ومقامها مقام تجليات الأسماء والصفات وحالها البقاء بالله تسير بالله إلى الله وترجع من الله إلى الله ليس لها مأوى سواه . علومها مستفادة من الله عز وجل[1] أهـ .

---

(١) تنوير القلوب فى معاملة علام للغيوب للعارف الكردى فصل فى النفس .

تفسير ابن عطية

لا تعجب أيها القارئ الكريم إن قرأت هذا التفسير فوجدت عنوان الكتاب مطابقا لمضمونه فاسم هذا التفسير «المحرر الوجيز» وهو محرر لأن دفع الشبه والضلالات ، وخلص الحقائق وحرر ما هو محتاج إلى التحرير والدقة ، وقد نوه بذلك فى مقدمة كتابه الذى لم يطبع منه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سوى جزأين ، وإن كان قد طبع طبعة كاملة بالمغرب حيث موطن هذا العالم الجليل ، وهو وجيز بالنسبة إلى التفاسير التى سبقته ، فهو كتاب أجمع وأخلص كما يقولون ويقوم منهج هذا التفسير على :

- الجمع فى التفسير بين المأثور والرأى .
- الاتجاه بالتفسير إلى اللغة والنحو .
- نظرته الصادقة فى توجيه القراءات المستعملة والشاذة .
- أسلوبه العلمى فى عرض الأحكام الفقهية .
- حيطته وحذره فى الأخذ بالإسرائيليات .
- رأيه فى إعجاز القرآن الكريم .
- إقلاله من الأسرار البلاغية فى تفسيره .

كما يتميز هذا التفسير بمعالجة مسائل الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة ومناصرة المذهب السنى على المذهب الاعتزالى .

التَّفْسِيرُ المَوْضُوعِيُّ

وهو منهج يعمد فيه المفسر أولا إلى جمع الآيات التى وردت فى موضوع واحد ثم يضعها أمامه كمواد يحللها ويفقه معانيها ويعرف النسبة بين بعضها وبعض فيتجلى له الحكم ويتبين مرماها ، وبذلك يضع كل شىء موضعه ، ولا يكره آية على معنى لا تريده ، كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الإلهى الحكيم . وربما لم تكن حاجة الناس إلى هذا النوع من التفسير ضرورية وملحة فى العصور السابقة بقدر ما هى كذلك فى عصرنا الحاضر ، خاصة ذلك النوع الذى يراد إذاعته على الناس بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن الكريم من أنواع الهداية ، وإلى أن موضوعات القرآن الكريم ليست نظريات يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعات وما يتصل بحياتهم من أقضية وشئون .

وقد قام محمد الغزالى بمحاولة رائدة نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم كتب منه الأجزاء العشرة الأولى فى مجلد واحد تولت طبعه دار الشروق ويقول فى مقدمته :

والهدف الذى سعيت إليه أن أقدم تفسيرا موضوعيًا لكل سورة من الكتاب العزيز .

ويوضح الأستاذ الغزالى الفرق بين التفسير الموضعى والتفسير الموضوعى فيقول :

أما التفسير الموضعى فيتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام .

وأما التفسير الموضوعى فهو يتناول السورة كلها يحاول رسم صورة شمسية لها تتناول أولها وآخرها وتتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلها وتجعل أولها تمهيدًا وآخرها تصديقًا لأولها [1] .

وكم كنت أتمنى أن يكون التفسير الموضوعى لا يقتصر على السورة وحدها كما بَيَّنَ ، وإنما يتناول قضية من القضايا التى ذكرها القرآن سواء فيما يتعلق بالعقيدة أو المعاملات أو الأخلاقيات . . ثم يأتى بجميع الآيات التى وردت فى جميع السور متناولة هذه القضية فى وحدة شاملة جامعة متكاملة مرتبطة بعضها ببعض فيتعلق المطلق بالمقيد والخاص بالعام والمحكم بالمتشابه والمفصل بالمجمل فى غير تناقض ولا اختلاف ، وهنا يتجلى الفرق بين اختلاف التنوع واختلاف التناقض والتضاد الذى يتنزه عنه القرآن الكريم ويكمم أفواه الحاقدين من الذين لحقت ألسنتهم العجمة ولحق قلوبهم الاعوجاج . والله أعلم .

---

(١) مقدمة نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم للغزالى .

ابن جرير الطبري[1]

محمد بن جرير بن يزيد الإمام أبو جعفر الطبرى البغدادى أحد الأعلام وصاحب التفسير والتاريخ والتصانيف ، ولد بآمل طبرستان سنة أربع وعشرين ومائتين ، ورحل إلى طلب العلم وله عشرون سنة . قال الدانى عنه : إنه صنف كتابا فى القراءات سماه «الجامع » وقال الخطيب : كان أحد أئمة العلم يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله . . كان حافظًا لكتاب الله عارفا بالقراءات بصيرا بالمعانى فقيها فى أحكام القرآن عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين عارفا بأيام الناس وأخبارهم ، وله كتاب تهذيب الآثار لم أر مثله فى معناه لكن لم يتمه ، وله فى أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه .

قال أبو حامد الإسفراييني إمام الشافعية : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على تفسير ابن جرير لم يكن كثيرا .

توفى سنة عشر وثلثمائة ، ودفن يوم الأحد وقت الظهر لسبع بقين من شوال رحمه الله .

---

(١) غاية النهاية فى طبقات القراء ٢ / ١٠٨ عدد رتبى ٢٨٨٦ .

الطّبْرِسىّ

هو الشيخ أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى من أكابر علماء الشيعة الإمامية فى القرن السادس ، صاحب تفسير مجمع البيان فى تفسيرالقرآن ، ذلك السفرالجليل الغزير المادة الجم الفائدة ، أقام مؤلفه مباحثه على مواضيع سبعة ؛ افتتح كلا منها بآية قرآنية أو أكثر مع رقم عددها ، ثم ثنى بالمواضيع يبحثها عنوانا فعنوانا : القراءة ـ فالحجة ـ فاللغة ـ فالنظم فسبب النزول ـ فالإعراب ـ فالمعنى : التفسير .

والتفسير عنده لم يكن لقوم دون قوم ، أو مذهب دون مذهب كما يفعل جمهور المفسرين ، وإنما كان تفسيره للمسلمين عامة ، بجميع مذاهبهم ومشاربهم ؛ فهو مع مكانه من التشيع وإخلاصه لله تعالى فى الولاء للعترة الطاهرة ، لم يقتصر فى نقل المأثور من التفسير عن أئمة أهل البيت خصوصا بل نقل عن غيرهم كما نقل عنهم ، يورد المأثور عنهم من غير تعرض لنقد من تصحيح أو تضعيف بل يترك الحكم لأهل العلم من القراء .

يقول عن نفسه رضى الله عنه : كنت فى عهد ريعان الشباب وحداثة السن وريان العيش ونضارة الغصن كثير النزاع قلق التشوق ، شديد التشوف إلى جمع كتاب فى التفسير ينتظم أسرار النحو اللطيفة ، ولمع اللغة الشريفة ،

ويفى موارد القراءات من متوجهاتها مع بيان حججها الواردة من جميع جهاتها، وبجمع جوامع البيان فى المعانى المستنبطة من معادنها ، المستخرجة من كوافيها إلى غير ذلك من علومه الجمة ، فاستخرت الله تعالى ، وشمرت عن ساق الجد وبذلت غاية الجهد والكد ، وأسهرت الناظر ، وأتعبت الخاطر، وأطلت التفكير ، وأحضرت التفاسير ، واستمددت من الله التوفيق والتيسير، وابتدأت بكتاب فى غاية التلخيص والتهذيب ، وحسن النظم والترتيب بجميع أنواع هذا العلم وفنونه ، ويحوى فصوصه وعيونه ؛ من علم قراءته وإعرابه ولغاته ، وغوامضه ومشكلاته ، ومعانيه وجهاته ، ونزوله وأخباره ، وقصصه وآثاره ، وحدوده وأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والكلام على مطاعن المبطلين فيه ، وذكر ما ينفرد به أصحابنا رضى الله عنهم من الاستدلالات بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع والمعقول والمسموع على وجه الاعتدال والاختصار ؛ فوق الإيجاز ودون الإكثار وسميته كتاب (مجمع البيان لعلوم القرآن) وأرجو إن شاء الله تعالى كتابا كثير الدرر ، غزير الغرر ، متواصف السمات ، متناصف الصفات ، سيارا فى الأبحار والأغوار طيارًا فى الآفاق والأقطار ، مهذب الترتيب ، مذهب التهذيب ، أحكام الشريعة بمعانيه منوطة ، وأعلام الحقيقة بمبانيه مربوطة ، وبحول الله أعتصم، وبقوته وعونه أفتتح وأختتم ، وإياه أسأل الهداية إلى التى هى أقوم ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

عاش رضى الله عنه تسعين سنة ، وولد فى سنة سبعين وأربعمائة ، وتوفى سنة إحدى وستين وخمسمائة وقيل سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

والطبرسى (بالطاء المهملة والباء الموحدة المفتوحتين والراء الساكنة بعدها مهملة) نسبة إلى طبرستان بفتح الطاء والباء وكسر الراء كما فى معجم البلدان .

كلمة حق

ومن خلال دراستى المتأنية لكتاب « مجمع البيان » للعلامة الطبرسى ، رأيت أن أقول إن الرجل يزاحم أهل السنة من المفسرين إن لم يتفوق عليهم ، بل إنه يتميز عنهم بالحيدة التامة وعدم التعصب لمذهب أو مشرب . . وتلك ـ لعمرى ـ منقبة له . . فلم أر بين ثنايا الكتاب غلوا أو تطرفا أو خروجا على المألوف من التفسير بالمأثور والمنقول . . وليس فى التأويل شطط أو انحراف كما يزعم بعض الناس الذين يكيلون الاتهامات للأبرياء ، فإذا طالبتهم بالدليل تنصلوا منك ، وراوغوك ، وأحالوك على مراجع لا وجود لها وتركوك حائرًا . . يداخلك الشك فتعادى أناسا قد تكون أحب إليهم من نفوسهم ، وتشتعل فى قلبك نار العداوة والبغضاء ويتم للمغرضين ما يريدون من تفرقة الأمة ، وتشتيت شملها ، وعندئذ يرقص الشيطان طربا ، ويتمايل عجبا لأنه تمكن من إيقاع العداوة والبغضاء بين أبناء الأمة الواحدة التى وصفها الله بالخيرية فى قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ فلا تحرم نفسك من النظر فى كتب هذه الفرقة التى أوقفت نفسها على حب الله ورسوله وحب أهل بيته ، وأفنوا حياتهم فى الدفاع عن العترة الطاهرة جزاهم الله عن الله ورسوله وأهل بيته خير الجزاء .

المؤلف

فهرس

رقم الإيداع ٢٤١٢ / ٩٥
I.S.B.N 977-09-0275-6

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



فى القرآن عموميات وخصوصيات ـ فعمومياته سائر الآيات
وخصوصياته حروف ؛ إما مفردة ، وإما مركبة على سبيل الإعجاز وهو نسق
عجيب فريد حيث راعى فى نظمه الطريقة النفسية والطريقة اللسانية ،
وكلما ازداد الفكر البشرى تقدمًا ونضجا وبصيرة ، وسجلت له أحداث الكون
وتجاربه نقاطا جديدة فى الخط البيانى للعقل الإنسانى
أدرك من حقائق القرآن ما لم يدرك من قبل ، ولهذا كان القرآن سجلاً لجميع
ما تتوقف عليه الهداية من المعارف وحقائق الكون .
ومن أسرار إعجاز هذا القرآن أن معارفه لا تنفد ولا تنتهى
فهو مبعث كل بحث أو كشف ؛ لأنه يصدر عن معرفة الخالق العليم القادر ،
نزل بحرف قريش الذى استقطب لهجات العرب ،
واستوعب لغات العجم فما استساغته قريش من الألفاظ ذاع وشاع
وما استهجنته اندثر وضاع ؛ فهى دائرة متسعة ،
وحلقة متصلة لا يدرى أين طرفاها .
ونزل القرآن الكريم بمكة والمدينة فى حوالى ثلاث وعشرين سنة
منجما وفقا للظروف ، وما تتطلبه الأحكام ويحتاجه الأنام لبناء الدولة الحديثة
التى قوامها الكتاب والسنة فى جو بلاغى عظيم تسارع إليه أيدى كتاب الوحى
مسجلة ما ينزل من السماء على قلب الأمين بلسان جبريل ،
ثم يلقيه النبى صلى الله عليه وسلم بين الآذان الصاغية
والقلوب الواعية ، فتنشرح صدورهم وتنفسح أفئدتهم
ويدخلون فى دين الله أفواجا ، ثم يتهيئون للعمل بمحكمه ،
والإيمان بمتشابهه ، والاعتبار بأمثاله .